موضعنا شمس الغروب وهى ترسل علينا شعاعاً متناثراً كالذهب يهتز فى نواحى المجلس باهتزاز الغصن الرطيب تحت خطرات النسيم حتى كأن القصر يرقُص بنا سروراً بأهله وعزةً بمقامهم الرفيع .

هذا ما أذكره لك عن المغنين وليس هو إلاّ المحفوظَ فى ذهنى من غنائهم مجرداً عن بيان طرائقهم فى الأصوات وصناعتهم فى وضع النغمات ، لأنى لو أخذتُ فى ذلك ما وعتهُ الصحف الكثيرة الواسعةُ [١] . وقد وقع تدوين هذه الرسالة فى غُرَّة المحرم من السنة الخامسة والثمانين بعد المائة من الهجرة النبوية المشرَّفة على صاحبها أشرف الصلاة وأزكى التحية

الرسالة السابعة

فى ذكر آداب العرب

هذه رسالة إليك أفردها لذكر آداب العرب وعلومهم ، فقد طالما شهدت مجالسهم بدار الرشيد فى محاورة فقهاء ، وحَلَق علماء ، ومنادمة أدباء . ومناظرة جدليِّين ، ومراواة رُواة ، ونُوَب مغنين . [٢] وذلك من الحظوظ التى لا يتفق مثلُها لغيرى من المتصلين بالملوك ، لأنى كنت أقرب الناس مكاناً إلى الرشيد تحت ظل البرامكة ، وكنت من الحُظْوة لديه بحيث

---

(١) راجع كتاب الأغانى ان شئت فيها مطولا (٢) واحدها نوبة وقد ذكرها الاغانى ٢٠ : ٦٤ بمعنى الاسم من المناوبة والناس اليوم يطلقون اسم النوبة على ضرب المعازف وآلات الطرب

إذا جلست إلى منادمته عدل عن جلال موضعه من الخلافة ورجع إلى محاسن المنادمة من اطلاق النفس على صفاء الأخوان ، فكان يعمد إلى مخدة [١] يجعلها تحت فخذه ويمكن منها جلوسه ثم يقول هلمّ بحديثك ، [٢] وهذا غاية ما يكون من الملوك إذا طابت نفوسهم بمنادمة الجلساء. وكنت إذا انفردت بمجلسه دون أحد من المقربين إليه أخرج جواريه على غير ستارة فيجلسن مكللات بالأزهار [٣] مزينات باللؤلؤ والزبرجد [٤] وأفخر أنواع الجوهر فيغنين ويضربن بالملاهي إلى هدء من الليل ، فاذا أتاه من الحرم [٥] التفاحُ [٦] المنقوش المطيب [٧] وغيرُه من الفاكهة وأنواع الحلوى عزم عليّ أن أجلس إلى طعامه ، [٨] وكان يحب أن أحدّثه عن علوم الفرس وصنائعهم لِمَا طبع الله فيه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الوقوف على أخبار الماضين من الأمم ، ولذلك كانت دولته تزداد خيراً وصلاحاً ، وينعَم فيها العلم روْحاً واستراحاً . حتى إذا أقبل إليه العلماء من جميع الوجوه يستمطرون غيث نداه حقق لهم جميل أملهم فيه ، وبسط يده لإقطاعهم الضياعَ العامرة ، وصلتهم بالهبات الوافرة .

وكانت همة الرشيد مصروفة إلى ترجمة كتب الفلاسفة من يونان وغيرهم ، بعد أن رأى جعفرا وزيره يبتاع من صحفهم ما يأمر التراجمة

---

(١) الاغانى ٥ : ١٢٢ (٢) الاتليدى ١١١ (٣) الأغانى ٧ : ٣٦
(٤) الاغانى ٤ : ٦٢ (٥) المسعودى ٢ : ٥٦ (٦) وجدت فى بعض الكتب أن الرشيد كان يحب التفاح ويقول هو أحسن الفاكهة لأنه اجتمع فيه بياض الفضة ولون التبر ويلذ به من الحواس العين ببهجته والانف بريحه والفم بطعمه . العقد الفريد ٣ : ٣٧٥ (٧) الاغانى ١١ : ٣٥ (٨) العقد الفريد ٣ : ٣٠٠ والقناوى ٣٦

بتعريبه [١] ثم يعطيهم زنة الكتاب المعرَّب ذهبا ، (لأن سوق العلم نافقة عند البرامكة [٢] (أعزهم الله) وهم الذين استنهضوا همم العلماء إلى تعريب صحف الأعاجم ، وأشاروا بعمل الكاغَد لنسخ أسفارهم ، وقد رأوا الرقوق التى تستعمل فى الصُّكوك ورسائل السلطان لا تكفيهم فى تدوين مصنفاتهم ومعرباتهم فرأوا من عمل الكاغَد [٣] ذريعةً إلى نشر العلم الذى عُنُوا برفع مناره بحيث لم يدعوا سبيلا إلى انتفاع الأمة به إلاّ سلكوه ، وقد أعقبهم هذا المسلك فخراً تتناقله الألسنة عنهم بطيب الأُحْدوثة فحسدهم الرشيد على ذلك ، وفى نفسه من الميل إلى الأدب والتشوق إلى الاطلاع على كنوز الحكمة ما قد رأيتَ فى كتبى السالفة إليك ، فأنفذ رسله فى إحراز الأسفار القديمة ، وكتب بإشخاص التراجمة الذين يحسنون العربية من الروم وغيرهم من أمم النصرانية ، وتقدم إليهم بتعريبها إلى اللغة السهلة التى تفهمها العامة وترضَى بها الخاصة .

فلما تناول العرب هذه الأسفار مهَروا فى استخراجها ووقفوا على أغراض الحكماء منها ، [٤] فرقَوا من الأدب المقامَ الذى لم ترقَهُ أمة قبلهم فى المشرق . وهذا من الأمور التى تدل على ذكاء العرب [٥] ونُبْل الهمة عندهم وأنهم يبلغون الغاية التى يرومونها من جميع المطالب فى بُرْهة يسيرة من الزمان ، فانا لا نجد فى أخبار الأمم السالفة من حاز من أطراف الدنيا مثل ما حازه المسلمون فى مثل المدة التى وقعت فيها الفتوح ، فقد كان من شأنهم عند ما صار الأمر إلى بنى أمية أن حازوا أكثر الأقاليم وابتزوا

---

(١) ابن خلكان ١ : ٢٣٦ (٢) الفخرى ٢٣٥ وابن عبد ربه
(٣) المقدمة ٣٦٨ (٤) راجع المقدمة وكتاب حاجى خليفة (٥) المسعودى ١ : ٢٣٦

الأعاجم سلطانَهم ، ووصلوا من الشرق إلى السند والهند وتجاوزوا المغرب إلى أبعدَ من الأندلس شمالا . وما مثلهم فى سرعة هذه الفتوح إلاّ مثلهم فى سرعة تحصيل العلوم وبلوغهم من المدنيـة ، على قرب عهدهم بها ، ما لم تبلُغه أمم العلم من قبلهم . فمن الغريب الذى ينطق بما عندهم من الهمة والفطانة أنهم لم يقتصروا من الحكمة على نقـل فلسفة اليونان بل وجدناهم يرمون إلى أغراض من الفلسفة بعيدة ، ويضعون على قواعد اليونان شرحاً [١] أصابوا الرأى بالزيادة فيـه بعد البحث والتمحيص ، [٢] وذلك غيرُ ما فتحوا من الأبواب الواسعة للنظر فى العلوم الرياضية وتحريرها وإصلاحها وغير ذلك .

وكان أول عهد العرب بالعلم فى خلافة أبى جعفر [٣] لأنه كان يعزّز جانب الحكمة ويبحث عن مكامن العلم للوقوف على آداب الأولين ويعزم على أهل الكتابة أن يدوّنوا الأسفار الكثيرة لاذاعة العلوم بين الناس ، إذ لم يكن معروفاً عندهم من قبـــله إلاّ علمُ الرواية وأخبارُ العرب وعلمُ الأحكام الشرعية واستنباطها من القرآن والحديث وعلمُ العروض الذى وضعه الله تعالى فى صدورهم وبضاعةٌ مُزْجاة من النِّجامة وعلم الأفلاك مما اقتبسوه من الفُرْس والهنود ، فلما جاءت هذه الأيام تسحَب عليهم أذيال الدَّعة والنعيم بعـد أن فرغوا من أعمال الحروب التى وقعت فى صدر هذه الدولة وجهوا همَّهم إلى النظر فى فنون الأدب لتجديد ما طُمِس من معالم العلم ، فكتبوا فى جميع فروعه وفنونه بحيث إنه لو جمعت كتب أمة قديمة

(١) حاجى خليفة ٣ : ٩٢ (٢) ابن خلكان ١ : ٢٦٣ (٣) السيوطى وأبو الفرج ٢٤٦

عهدٍ بالعمران ما وُجد ما تحويه من العلم أعظمَ مما تحويه كتب العرب . وإنى أذكر أنّ الرشيد لما ركب إلى الرَّقة فى بعض أسفاره حمل معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفارهم [١] ليقطع بمطالعتها زمانه مع أنه لم يأخذ منها الا نخبة مما فى خزائنه وقد وجدت فى قصره بناه بالقاطُول ليخرج إليه للتنزه [٢] خِزانةَ كتب تحتوى على أكثرَ من ألف كتاب . وحسبنا ذلك شاهداً على ما نروم ذكرَه من كثرة الصحف التى دونها العرب بين تعريب وتصنيف .

الطب والاطباء

كان أبو جعفر (غفر الله له) يوجه عنايته إلى علم الطب من بين العلوم فبنى لتعليمه حَلْقة كبيرة فوَّض أمرها إلى طبيب أعجمى يقال له « فرات ابن شحتانا » وهو من تلاميذ تياذوق [٣] الذى كان طبيباً بدار الحجاج أمير العراق ، فتخرج عليه طائفة من النصارى [٤] دون المسلمين ولست أحسَب السبب فى إعراضهم عن هذا العلم إلاّ ظنَّهم كفايَة ما لديهم من المجرَّبات التى توارثوها من مَشْيَخة الحىّ وعدمَ حاجتهم إلى مثل هذه الصناعة فى كسب الرزق وترفعهم عنها كغيرها أُنَفَةً . وذلك خطأ عليهم شَيْنُه وخُسرانه ، إذ قد خلت منهم فى دور الخلافة مراتب أُسْنِدَت إلى أطباء النصرانية فبرعوا عليهم فى هذا العلم وعرّبوا كتب جالِينُوس وأبقراط من حكماء اليونان وأضافوا إليها كثيراً مما عرَفوه من علم الحيوان بعد وقوفهم

---

(١) الأغانى ٥ : ٦٧ (٢) ابن الاثير ٦ : ١٦٦ (٣) أبو الفرج ٢٠٠

(٤) فى الأغانى ومقدمة ابن خلدون ذكر كثير من أطباء النصارى دون المسلمين

على مقالات ارسيخاس[١] وديمقراطيس[٢] وغيرهما من العلماء الذين يُرْجَع إلى كلامهم فى طبائع الحيوان وخواصه ومنافع النبات ومضاره .

ولقد كان مُظْهِرَ الطب فى النصرانية رجلٌ يقال له ما سَوَيْهِ أبو حنا وكان أميًّا لا يعرف القراءة إلاّ أنه تلقى الطب من أفواه اليونان وطالت به المَرانة له والتجربة فيه إلى أن بلغ منه المكان الذى لا يُدْفَع ، وكان له ولدان يقال لهما يحيى ويوحنا فتخرّجا عليه فى علمه ومعهما ثالث يقال له جبريل ابن بختيشوع فبرعوه فى شفاء الأمراض .

فأما يوحنا فانه صار طبيباً بدار الخلافة ودوّن رسالة طويلة أودعها ما عَرَض له من التجربة فى معالجة أهل السَّقام ، واتخذ مجلساً أفرده للنظر فى استنباط طرق العلاج باجتماع الرأى مع غيره من الأطباء ، وكان الرشيد قد ولاّه ترجمةَ الكتب[٣] التى وصلت إليه من مدوّنات الأطباء والحكماء مثل أبقراط وجالينوس وغيرهما فأحسن تعريبها كل الاحسان مع ما وجد فيها من الصعوبة التى نال منها مشقة عظيمةً . وذلك بخلاف الكتب التى عرّبت فى خلافة المهدىّ وأبى جعفر فانها لم تكن جديرة بالثقة بها ولا الالتفات إليها ، إذ كانت عارية من القواعد التى وضعها الحكماء وليست تحوى سوى طرق من العلاج أشار بها ضعفاء العقول من الأطباء ، وكانت إلى الجهل والخرافة أقربَ منها إلى العلم والحقيقة ، فلم يجد التراجمة فى تعريبها عناء يُجْهِد النفس . أما الكتب التى عربها ابن ماسويه فانها من أصح ما صدرت به أقلام اليونان وأنفَسِه .

وأما جبريل بن بختيشوع فانه تبحّر فى جميع العلوم الداخلة فى علم

(١) المسعودى ١ : ٩٢ (٢) حاجى خليفة ٣ : ١٢١ (٣) أبو الفرج ١٣٧

الطب ، وكتبَ فى حياة الحيوان رسائل[١] تدلّ على سَعَة إطلاعه ، وكان جعفر[٢] (أعزه الله) شديدَ الحب له والاحتفاظ به ، حرصاً على ما وسع صدرُه من العلوم ، فقرّبه الرشيد إليه برأى البرامكة واتخذه فى دور الخلافة بدل صالح الهندى الذى كان مقدّماً[٣] من قبله على أطباء بغداد ، فلما صار إلى هذا المقام الجليل ورأى الناس يرجعون إلى رأيه فيما يُشير به من هذا العلم حملهم على الاعراض عن الدجّالين ، وهم الشيوخ الذين بعُدت المهابة عنهم ودل ما بلغوه من الشيخوخة على بلوغ الخَرَف منهم فيزعمون أنهم يُطبُّون الناس بالمواعظ[٤] ليملكوا أفئدة العوام بما لا فائدة فيه من الخُرافة ، فوُفِّق بعلمه إلى بلوغ الغاية التى رامها من قطع السبيل عنهم دون الارتزاق بهذه الجهالة التى تميت الأذهان الضعيفة .

ويأتى بعد جبريل بن بختيشوع ويوحنا بن ماسويه طبقة « ثانية من الأطباء كلُّهم من أمة النصرانية إلاّ عيسى أبا قريش الصَّيْدَلانىَّ ، وليس هو بطبيب ماهر ولكنه رُزق الشهرةَ بين الناس عن اتفاق وقع له بأن بشّر الخيزُران فى خلافة أبى جعفر بأنها تحمل مولوداً ذكراً يصير إليه أمر الأمة ، فلما ولدت وكان ما ولدته غلاماً أفرغت النعمة عليه واتخذته طبيباً فى دار الخلافة ،[٥] وقد سمعتُ من يقول إن الخيزُران انما قربته لمهارته فى الحِجامة لا فى الطب ، فان صحت الرِّواية كان عندى أحقَّ بالثقة فيه حجاماً من الثقة به طبيباً ، إذ لست أثق من الطب إلاّ بما يحفظ الصحة للصحيح ، أمّا وسائل العلاج التى يزعمون أنها تُبْعِد العلةَ عن العليل بعد تمكُّنها منه

---

(١) حاجى خليفة ٤ : ١٢٥ (٢) أبو الفرج ٢٣٥ (٣) أبو الفرج ٢٣٨
(٤) المسعودى ٢ : ٥٨ (٥) أبو الفرج ٢٩

فما أنا من الثقـة بها على شىء ، لأنى أحسَبها من باب الغوص على أسرار الطبيعة ، وطالما وجدت للاطباء فى العلة الواحدة آراء متباينة ، ومن المعروف عند العقل أن الخلاف فى الأمر الواحد لا يطابق الحق فيه إلاّ وجه واحد . أما الحِجامة فانها على خلاف ذلك ، والرأى فيها واحد يقضى بحذف الجزء الفاسد وفصـله ، وإنى وإنْ كنت على بُعْدٍ من الطب لا أجد بُدًّا من الاقرار بفضل العرب فيما استنبطوه من العلاج وما عرفوه من مركَّبات العَقَاقير التى لم يسبق إليها أحد من المتقدمين ولا المتأخرين ، ولا غرو فان للطب صناعة لا تُبْلَغ الغاية منها إلا على طول التجربة والاختبارِ فى المَرانة والممارسة ، ولذلك كان المتأخرون يفضلون فيها المتقدمين فى كل عصر وأمة ، وقد قال علىّ عليه السلام(١)

ألا لن تنال العلم الا بستة ... سأنبيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبُلْغة ... وارشاد أستاذ وطول زمان

النجامة وعلم الأفلاك

لقد سبق الالماع إلى ذكر النِّجامة وأنها من العلوم التى كانت معروفة قِدْماً عند العرب ، غير أنّ الاجتهاد فيها كان محصوراً فى نفر قليل من أتباع الأقيال الذين تداولوا ملكهم قبل الاسلام ، فلما جاء أبو جعفر قرَّب اليه المنجمين وقدم عليهم نَوْبَخْتَ(٢) المنجم المشهور عندنا بين أعاظم المجوس وفضلائهم ومن له كبير علم وجزيل فضل ، فاتخذ فى الزَّوْراء حَلْقة شهدها

(١) الكنز ١٣٩ والشبلنجى ١٠٢

(٢) ذكره القزوينى وابن الاثير وغيرهما فى استشارة أبى جعفر اياه فى بناء الزوراء

كثير من الناس ، إلاّ أنه لم يخلُفه فى علمه كالمَوْصِلِيّ المنجم ، فانه كتب فى الأصطرلاب سِفْراً أودعه من علم الكواكب وسيرها وحركاتها أصولاً يُميرها العلماء جانبَ الثقة والاعتبار ويرجعون إليها فى علم النجامة والافلاك

ثم نجم بعده فى المسلمين على بن عيسى الأصطرلابى [١] وإبراهيم الفَزارى المنجم ومهرا فى استخراج النجامة من كتب الفرس ، وقد عثرت فى خزائن البرامكة (أيد الله دولتهم) على أرجوزة فى علم الأفلاك وهيئتها نظمها إبراهيم هذا المنجم [٢] فجاءت ناطقة بحسن نظره ولطيف مأخذه وجليل موضعه من هذا العلم . وله كتاب مشهور فى الزيج ذكر فيه من غير حركات الكواكب جوامعَ من مساحات المالك والبُلْدان أذكُر مما قيّدهُ فى أقاليم الاسلام أنّ عمل أمير المؤمنين من فَرْغانة وأقصى خُراسان إلى طنجة بالمغرب ٣٨٠٠ فرسخ والعرضَ من باب الأبواب إلى جُدَّة ٦٠٠ فرسخ ، ومن الباب إلى بغداد ٣٠٠ ، ومن مكة إلى جدة ٣٢ ميلا [٣] ، وعملَ الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ٣٠٠ فرسخ ، وعملَ إدريس ١٢٠٠ فى ١٢٠ فرسخاً ، وعملَ فاس لأبى المنتصر ٤٠٠ فرسخ فى ٨٠ فرسخاً . [٤]

ثم نبَغ بعدهما تيوفيل بن توما الرّهاوى [٥] وكان المقدمَ على جميع المنجمين فى خلافة المهدىّ (رحمه الله) ، وكانت له معرفة تامة باليونانية حتى سما إلى ترجمة كتاب شاعر يقال له أميروس عن فتح مدينة إيليون فى العُصُر الخالية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة ، [٦] وأميروس هذا شاعر مُجيد

---

(١) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٢) المسعودى ٢ : ٤٠٠ (٣) المسعودى
(٤) ذكر ابن خلدون فى المقدمة منجماً من الروم يقال له توفيل الرومى وأنه كان فى أيام بنى أمية (٥) أبو الفرج ٢٢٨ (٦) المقدمة ٥٣١

كان يغترف المعانى من بحار التصوّر ويُبرزها فى الصورة التى يعجز عن مثلها الشعراء ، فوقف نظمه بين الحكمة والإجادة موقفاً لا يسمو إلى متناوله إلاّ العقولُ النيرة والأذهان الثاقبة ، وقد أثنى عليه أرسطو [١] فى كتابه بمديح يرفعه إلى أسمى مقامات العقول .

أما المنجمون فى هذه الأيام فهم اثنان مشهوران ما شاء الله اليهودى وأحمد بن محمد النهاوندى ، ودونهما فى الشهرة ثالث يقال له محمدُ بن موسى [٢] المنجم . فاما ماشاء الله فيقال إن له حظاً فى علم الغيب ، [٢] وكان فى جملة المنجمين الذين اتصلوا بأبى جعفر بعد نَوْبَخْت وكسَبوا الانعامات منه ، وهو اليوم بدار الترجمة آخذ عن أمر الرشيد بتعريب الكتب التى تبحث فى علم الأفلاك . وأما أحمد النهاوندى فانه فى الموضع الأجل من علم الرَّصْد ألّف فيه كتاباً سماه المستمال وأودعه من تحقيق النظر وتعميق الفكر فيما عرَض له من أمور الفلك بما رصَد فى مدينة جُنْديسابور ما لم يسبق اليه أحد من المنجمين ، ودوّن فى الموازنة بين علوم الفرس والهند واليونان فيما عرفوه من النجامة وسلكوا طريقته إلى آخر زمانهم كتاباً آخر صوَّر فيه الدنيا كلّها للرشيد ببحورها وجبالها وأوديتها وأقاليمها وبُلْدانها وسائر أماكنها ، وجعل الدرجة خمسة وعشرين فرسخاً والفرسخَ اثنى عشر ألفَ ذراع والذراعَ اثنتين وأربعين إصبعاً ، والأصبعَ ست حبات وتسعين مصفوفاتٍ بعضُها إلى بعض ، [٣] وهذا مما يحتاج إلى دقة النظر فى معرفة عرض الأرض وطولها ومناسبة الأقاليم فيما بينها وغير ذلك .

---

(١) الأغانى ١٥ : ٨١ (٢) أبو الفرج ٢٤٨ (٣) ذكرها المسعودى ١ : ٢٧٨

وقد أهدانى هذا المنجم نسخة مصوَّرة من كتاب المستمال فى السنة الرابعة والثمانين بعد المائة من الهجرة ، ولكنه أخبرنى أنه لم يرسله بين الناس لما يحتاج إليه من المراجعة والاصلاح بسبب مايعرض له من أمور الفلك الذى يباشر رصده فى هذا الوقت .

ولقد مضى فى كلامنا عن الطب أن النصارى برعوا فيه على المسلمين وكذلك نقول فى هذا الباب إنّ الفُرْس برعوا فى النجامة على العرب ، لأنى رأيت هؤلاء يتجافَوْن عنها ويمُدُّونها هى والسحرَ [١] الذى ينهَى الشرع عنه علماً واحداً ، بخلاف جماعتنا من الفرس فانهم يوجهون عنايتهم إلى العلا فى مباحثهم ومناظراتهم ، ولذلك تجد انصبابهم إلى الرَصْد وما يُنبىء عنه من إشارات النجوم والكواكب أعظمَ من انصبابهم إلى ما سواه من العلوم ، وكان المقرَّبَ لهم فى الاسلام أبو جعفر المنصور [٢] كما ذكرت ذلك فى مواضعَ من الكتاب لأجل أن يُطلعوه على طوارئ الجو وحدوث الأنواء وانتقال الشمس والقمر والكواكب فى بروجها وينبئوه عن جدب الأرض وخِصبها لما يكون من معرفة ذلك قبل أوانه من المنفعة العظيمة للملوك ، ثم قرّبهم البرامكة (أكرمهم الله بأكرم الكرامات) لاستشارة الاصطرلاب [٣] فى جلوسهم وركوبهم وما يباشرون من جميع الأعمال ولينظروا فى النجوم ويُدركوا علم الأبعاد ويُوَقِّعوا زمن الكسوف [٤] وعقدوا لهم مجلساً يتناظرون فيه لتحقيق ما يستنبطونه من حركات

---

(١) القناوى ١٥ (٢) السيوطى (٣) ذكر صاحب الأغانى والاتليدى أن جعفرا استشار الاصطرلاب يوم نكبه الرشيد (٤) العقد الفريد ٢ : ٧٨٥ و ٢٤ المقدمة

الكواكب المتحركة والمتحيزة وأسبابها بطرق هندسية ، وما يرون من الأفلاك التى تختص بالكواكب الثابتة وغير ذلك . وتقدموا الى مَنْ له علمٌ بالنجامة أن يُعرِّب كتاب المجسطى لبطليموس من حكماء يونان واتخذوا آلة للرصد تعرف بذات الحلق ، [١] فكان يجتمع عليها المنجمون وفيهم جماعة من أدباء العرب الذين لم يشاركونا فى هذا العلم إلاّ بما يلتمسون من معرفة الأيام والشهور والسنين من طريق حركة كل كوكب وهو الفرع الذى يسمونه بعلم الأزياج [٢]

الحديث وعلوم الشرع

الحديث هو العلم الذى هوت إليه أفئدة المسلمين ، وكان شأن العرب فيه فى صدر الاسلام أن يرحلوا من بلد إلى بلد ليسمعوه من الصحابة ثم من التابعين ثم ممن سمع من التابعين من غير أن يدونوه فى الصحف ، فلما أسرع الموت فى العلماء وكانوا كلُّهم شيوخاً فزِع أهل العلم إلى الطروس وأخذوا يدونون [٣] الحديث مثل ما وجدوه فى الناس محفوظاً بطريق الاسناد ، ولكن من غير أن ينظروا فى الرواية النظرَ الجليَّ ولا أن يعتمدوا فى النقد الأصلَ المرعيَّ . فكتب ابن جريج بمكة ، [٤] ومالك بنُ أَنَسَ بالمدينة ، ومَعْمَرَ باليمن ، وسفيان الثَّوْرِىّ بالكوفة ، وهشيم بن بشير [٥] بالعراق ،

---

(١) وقال ان المأمون أول من اتخذها فى الاسلام وانها كانت معروفة عند اليونان كما يستدل على ذلك من العقد الفريد (٢) المقدمة ٤٢٧ وحاجى خليفة ٣ : ٥٦
(٣) الزرقانى ٥١ : ١٠ (٤) الزرقانى ١ : ١٠ (٥) ابن خلكان ١ : ٥٢ والأغانى ٥ : ٥٤

والأوْزاعى ببيروت[١] من ساحل الشام ، وحماد بن سلمة وشعبة بن الحجاج وابن أبى عروبة بالبصرة ، وذلك كله فى خلافة أبى جعفر[٢] رحمه الله . وكان أصحَّهم حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مالكُ ابنُ أنس وهو رأس المحدِّثين ، [٣] رأيتـه إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرّح لحيته وتمكن فى جلوسه بوقار وهيبة ثم حدث ، فقلت له فى ذلك ، فقـال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحدثَ به إلاّ متمكناً على طهارة ، وكان يكره أن يحدث على الطريق أو قائماً أو مستعجِلا ، ويقول أحِبُّ أن أتفهَّم ما أحدث به عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم إنه لما جاء هذا العصر والناس مطلعون على حكمة الفرس واليونان وما فى أنواعها من الخروج عن الملة ، أخذ الأئمة فى وضع علم الكلام صيانة للدين أن تخالطه البدع ويقعَ فيه التخالف ، ثم أخذوا فى تمييز المحفوظ من الحديث كلِّه لمعرفة الصحيح من الفاسد الموضوع ، وكان أوّلَ من أخذ فى ذلك فقيهُ الاسلام أبو يوسف ، وكان من عِلْيَةِ أهل الحديث وهو الذى آخذ الناقلين بأغلاطهم[٤] ونبذ الموضوع من أحاديثهم ، وكان يقول اثنان لايسلمان من اثنين من طلب النجوم لم يسلم من الفقر ، ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب ،[٥] ثم أخذ أخذَه العلماء المجتهدون من بعده ، ومنهم أبو اسحق الفَزارى وعبد الله بنُ المبـارَك وهما أشهر الائمة لأيامنا

---

(١) حاجى خليفة ٣ : ٢٨ وذكر ابن الاثير وأبو الفداء وفاته سنة ١٥٧

(٢) السيوطى (٣) ابن خلكان ١ : ٦٢٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٢٧٦

(٥) العقد الفريد ١ : ١٩٩ و ٢١٣

هذه ، والرشيد لا يسمع الحديث إلاّ عنهما . ولا يلتمس الرد على الزنادقة إلاّ منهما . فكان إذا أخذ على الزندقة جماعةً يقولون له وهو يضربهم الحدودَ أين أنت يا أمير المؤمنين من ألف حديث وضعناها عن النبي صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نَطَق به ؟ فيقول لهم وأين أنتم يا أعداء الله من أبي اسحق وابن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً [١]

ولقد أخبرني هذان الامامان أنهما يؤلفان في فقه الدين وعلم الكلام رسائلَ يذكران فيها مذاهب الأئمة ثم يتطرقان منها إلى الرد على الذين يقولون بخَلْق القرآن ويزعمون أنه يحوي غيرَ العربيّ الفصيح من الكلام ، وهذان المذهبان [٢] فاشيان اليومَ بين الناس ، والأولُ منهما أشد خطراً على الاسلام لأن زعم الخروج عن اللغة ضعيف الحجة واهي الدِّعامة بما يُعْلَم عن العرب أنهم خالطوا الأمم في تجاراتهم وأسفارهم وعلقوا من لغاتهم ألفاظاً استعملوها في أشعارهم ومحاوراتهم حتى جرت مجرى العربيّ الفصيح ، فما ورد في القرآن من الألفاظ الأعجمية إنما دخل في العربية الفصحى بطريق الاستعمال والتعليق [٣] بحيث إنه لا يكاد يُرَى فيه من هذه الألفاظ ما لم يرد في شعر البلغاء من الجاهليين ، وفي هذا القدر كفاية للرد على هؤلاء المفترين فيما يزعمون . أما الذين يذهبون إلى أن القرآن مخلوق فللعلماء من أهل الاجتهاد حجج قامعة لافترائهم على الله مخمدة لنار الفتنة التي كمَنت طيَّ مذهبهم ، وهذا من الأمور التي ينبغي أن ينظر فيها الأولياء بعين الحذر ، لأن الفتنة لا تؤمن غائلتها بعد فساد الدين ، ويكون

---

(١) السيوطي (٢) الدميري ١ : ٩٨ والكشكول والاتقان ١ : ٦٨ أو ابن الاثير والاتليدي ٢٤١ وغيرهم (٣) الاتقان في تفسير القرآن ١ : ١٤٩

آخر أمرها بواراً على الدولة ومدعاة لسقوط العرب الذين ما فتحوا البُلْدان وحازوا سلطان الأعاجم إلا بنخوة الدين وفتوّة الاسلام .

ولقد عثرت فى مدوّنات الفقه على كتب جليلة أجلُّها كتابٌ لأبى حنيفة فى الكلام [١] اسمه الفقه الأكبر ، وله فى هذا العلم الشأو الذى لا يدرك ، وكتابٌ لمالك بن أنس سماه الموطّأ ، وذهب فى استنباط الأحكام الشرعية من القرآن والحديث إلى مذهب ينفرد به عن مذهب أبى حنيفة ، وهو الكتاب الذى يقرؤه الرشيد ويحفظه فى صدره [٢] تفضيلا له على غيره من كتب الفقه . وعثرت أيضاً على كثير مما دونه العلماء فيما يُشْتَقُّ عن الفقه من علوم الأحكام ، منها لأبى حنيفة وأبى يوسف رحمهما الله ، ومنها لابن شُبْرُمة وابن أبى ليلى ، [٣] وقد أفردا نظرهما فى علم الفرائض . ومنها كتاب لفتى يقال له يحيى بن أكثم جمع فيه ما استحسن من آراء أصحاب المذاهب ، وهو الكتاب الذى أصبو إلى مطالعته من بين هذه الصحف الشرعية ، لأنى وجدت قِبَلَ صاحبه من قوة الفطنة [٤] وصدق الحَدْس ما يؤكد لى أنه إن مُدّ له فى العمر فسيبهر الفقهاء .

أما الكتب التى وقفت عليها فى علوم الحديث فانها أكثر من أن يأخذها الاحصاء ، [٥] غير أن الافادة منها كانت محصورة فيما جمعه كبار العلماء وبقى أنّ جملةَ ما فى غير كتبهم مراجعةٌ وإعادة لما سُبِقوا إلى تدوينه ، فكان أنفعَ للعلم لو صرف الباقون عنايتهم إلى النظر فى غير ذلك من العلوم ولم يضيعوا العمر فى نقل ما سبقهم إليه العلماء .

---

(١) حاجى خليفة ٤ : ٤٥٧ (٢) الزرقاوى ١ : ٩ (٣) حاجى خليفة ٤ : ٣٩٦ (٤) ابن خلكان ١ : ٩٢ (٥) كتاب حاجى خليفة

فى تدوين اللغـــة

أما اللغة فان العلماء قد وضعوا قواعدها على أصول وقفت عندها الغاية فى الاصلاح وتدقيق النظر، لأنه قد سبق اهتمامُهم بها اهتمامَهم بما سواها من العلم اضطراراً إلى تفسير القرآن، إذ كانت الكتابة مجهولة عندهم فى صدر الاسلام ولم يكن يكتب بالعربية غيرُ بضعةَ عَشَرَ إنساناً[1] وكانت ألفاظ العرب بعضُها محفوظ فى صدور الرجال، وكثيرُها ضائع بين الرمال، فبادروا إلى التقاطها من البادية يطرُقون منازل أهلها ويشهدون محاوراتهم ويتتبعون آثارهم ويستنطقون أطلال ديارهم حتى وقفوا على ما كان متفرقاً من لغاتهم، وقيدوها فى الصحف بطريق الرواية والاسناد.

وكانت حروف الكتابة فى أول الأمر موضوعة بغير علامات[2] وظلّ الناس يقرءون فى مصحف عثمان وهو بتلك الكتابة نحواً من أربعين سنة حتى كثر التصحيف لوجود الحروف المتشابهة،[3] وما أستغربُ أن يقرأ بعضُ الناس وما يجحد بآياتنا إلاّ كل جبار والأصلُ ختّار، وعذابى أصيب به من أساء والأصل أشاء، وهم أحسن أثاثاً وزياً والأصلُ ورئيا، والذين كفروا فى غرة وشقاق والأصلُ فى عِزّة إلى غير ذلك، فوكَلَ عبدُ الملك بن مَرْوان إلى النَّضْر بنِ عاصم أن يضع علامات لهذه الحروف المتشابهة فوضعها لها أفراداً وأزواجاً فتميز بعضها عن بعض ومُحِيَ التصحيف فى القراءة.

---

(١) العقد الفريد ٢ : ٢٠٦ (٢) حاجى خليفة ٣ : ١٥٤ (٣) ابن خلكان ١ : ١٥٧

وضبطُ اللغة كان لما يحتاج إليه العلماء من حفظ الحديث وتفسير القرآن الكريم بما دونوه من لسان قريش وغيرهم .

وأول من دوّن اللغة مجموعةً فى كتاب واحد الخليل بن أحمد الذى قدّمتُ لك فى الكلام على البصرة ذكرَه ، وقد ضمن كتابه [١] أصول اللسان العربى وقيد ألفاظه فى مواضعها من الاشتقاق الا ما كان دخيلا عليه من كلام الأعاجم فانه اكتفى من ذكره بالاشارة إلى عجميته ، وأسند روايته فى ذلك كله إلى أكابر الحُفّاظ ولذلك صار قوله حجة يرجع إليها ، ثم دونها بعده كثير من العلماء منهم أبو الحسن على بن حمزة الكِسائى مؤدب الأمين والمأمون [٢] من أولاد الرشيد ، ومنهم سيبويه [٣] والفرّاء والأخفش وعلمُهم النحوُ فقط إلا الفَراء فانه كثير الفضل على العربية بضبطها وتخليصها ، [٤] وقد بلغتنى جلالته فى العلم ولكن لم يجمعنى وإياه مجلس إلى هذا اليوم [٥] ومنهم أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنى البَصرى وقد وقع إلىّ كتاب له فى فقه اللغة لتعليم الرشيد [٦] قبل تشرفى بتأديبه ، وقد أودعه كلام العرب وقيودَ لغتهم وذكر المترادفاتِ التى وردت لهم فى

---

(١) هو أول قاموس كتب فى اللغة العربية (٢) المسعودى ٢ : ٢١٣ والابشيهى ٢ : ١٣ (٣) وقت أبو الفداء ٢ : ١٦ وفاة سيبويه بسنة ١٨٠ للهجرة وقال انه كان أعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو . وجرى له مع الكسائى البحث المشهور فى قولهم « كنت أظن لسعة العقرب أشد من لسعة الزنبور » قال سيبويه فاذا هو هى وقال الكسائى فاذا هو اياها وانتصر الخليفة للكسائى فحمل سيبويه من ذلك هما وترك العراق وسافر الى شيراز وتوفى هناك . (٤) ابن خلكان ٢ : ٣٣٨

(٥) ذكر أبو الفداء أنه ولد فى أيام يزيد بن عبد الملك وتوفى سنة ١٨٧ بعد البرامكة

(٦) ابن خلكان ١ : ١٥٢

جميع الأسماء والأفعال والأوصاف مشيراً إلى صحة استعمالها فى مواضعها من الكتابة ، وأتى على متابعة الألفاظ التى تصف الأشياء على ازدياد فى معناها أو نقص يبعدها عن الكناية

وهذا الكتاب يفتقر إليه كل كاتب من أبناء العرب الذين ينزلون الأمصار وينقطعون عن أهل البادية الذين يحافظون على قوام اللسان العربى ،[1] لأنى قد وجدت مباينةً بين كلام العرب واصطلاحات المتمصرين حتى تكون اللغة عند هؤلاء غيرَ اللغة عند أولئك ، فأما إذ انقسمت قسمين فيكون القسم البدوى هو الحافظَ لمحاسن اللغة التى كان ينطق بها البلغاء والشعراء ، ويكون القسم الحضرى قطعةً من كلام العرب تخالطها كلام السُّوقة[2] وألفاظُ المُعَرِّبين فيما ينقلونه من كلام الفرس واليونان مما لا نجد له مسمًّى فى لسان العرب ، لأن لغتهم إنما وضعت للبادية حيث لا تكون هذه الأشياء التى نجد أسماءها فى كتب الأعاجم ، كما أن فى لغات الأمصار إضراباً عن تسمية الأشياء التى لاتوجد إلاّ فى بادية العرب

ثم انى وجدت عند أهل اللغة قصوراً تسامحوا فيه وتغاضَوْا عنه ، وذلك أنهم عند ما يصرِّفون الكلام يسرُدون لغة القبائل فيه من غير أن يشيروا إلى ما كانت تختلف فيه لغة قوم عن آخرين ، ولقد ذكروا للأسد نحو ألف اسم ولكن من غير أن يذكروا الاسم أو الأسماء التى كانت تسميه

---

(١) يظهر هذا مما نقله الاصمعى وغيره من كلام العرب (٢) ذكر الأغانى كلام السوقة فى زمن الرشيد ٣ : ١٧٣ فى غير موضع أما ابن خلدون فيقول فى المقدمة ١٥ أن ملكة اللسان كانت محفوظة فى الأمصار الى عهد الزمخشرى وأمثاله من فرسان الكلام

بها عرب كذا وكذا ، وذكروا للبعير والحية وسائر الحيوانات والأشياء والأوصاف مثلَ ذلك مع إغفالهم ما نحن نؤاخذهم به ، حتى لقد نجد فى تصريف الأسماء إلى ما يُشْتَقُّ منها من المعانى مضادة أغفلوا ذكر استعمالها بين العشائر كاستعمالهم وثب بمعنى جلس وطفَر وذلك من الأضداد التى لا أظن أنها تجتمع فى كلمة واحدة عند قوم من العرب ، فان الوثوب بمعنى الجلوس فى لغة حمير ، وبمعنى الطَّفْر فى لغة قريش[1] . إلى غير ذلك[2]

الشعر فى البداوة

العروض علم وضعه الله سبحانه فى صدور العرب حتى لا يوجد أحد منهم إلاّ وهو يقدر على قول الشعر طبعاً رُكِّب فيهم قلّ القول أو كثُر ،[3] وكان أهل الجاهلية ينطِقون به عن بلاغة لا يقصدون بها إلاّ المفاخرة بين الأقران كما سمِعت الأصمَعىّ يقول « الشعر جَزْل من كلام العرب تقام به المجالس وتستنجح به الحوائج وتشفى به السخائم » بخلاف ما نجده فى شعراء هذا الزمان فانهم يغصِبون أنفسهم على الانشاد بما يستميحون الملوك

---

(١) فى القاموس الوثب الطفر والقعود بلغة حمير (٢) قيد العلماء فى كتب اللغة كثيراً من الأفعال التى تشترك فى معنى الشىء الذى له نقيض من نفسه مثل الهزال والسمن والصعود والانحدار والحضور والغياب وغير ذلك فربما عبروا عن الشىء ونقيضه من هذه الأسماء والافعال والأوصاف بلفظة واحدة مشتركة بين المعنيين باعتبار أن الجبل مثلا لا ينحدر منه الرجل الا أن يكون قد صعد اليه ثم لا يعقب الصعود الا الانحدار وكما أن الرجل لا يغيب الا بعد أن يكون حاضراً فانه لا يحضر الا بعد أن يغيب وهذه هى الألفاظ التى يصح أن تسمى بألفاظ المشاركة وانها لكثيرة فى كلام العرب (٣) الأغانى ٢٠ : ٥١

من الأرفاد. وعنـدى أنه كلما تباعدت أجيال الأعراب . وامتزجت بهم الأغراب . وتجافوا عن سكنى البـادية إلى حيث لا يكون لهم مجالس للمناشدة كدأبهم فى سوق مِجنّة وسوق عكاظ وسوق ذى المجاز [١] فقدوا كثيراً من بلاغة الشعر وضاق مذهبهم به على اتساع الحضارة فيهم إلى أن يكلفوا طبيعتهم شيأ لا يقدرون عليه فيقولون البيت ويحككونه أياماً [٢]

وإنما سهّل على المتقدمين الإجادَة فى هذا الفن أنّ شاعرهم كان ينفرد بمذهب واحد من المذاهب المعروفة عندهم بين فخر ونسيب ومدح وهجاء من غير أن يكون نابغةً فيما سواه ثم ان كلام العرب [٣] كان سائراً فى أيامهم على الألسنة فلم يعانوا الى البلاغة تكلفاً [٤] فيما قصدوا من المذاهب التى كانوا يُفردون فيها القول بطرائق انقطعوا إليها وكانوا بهـا موصوفين ، كاسترسال امرئ القيس فى ملاذّ الشـباب بحيث أتى فى نعت محاسن النسـاء بما ليس لقولِ غيرِه موقعُ مثلُه من القلوب ، وإنْ هو إلاّ أرق المتغزلين حيث يقول .

أفاطم مهلا بعضَ هذا التدلل   وإن كنتِ قدأزمعتِ صَرْمى فأجملى
أغرّكِ منى أن حبـك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعل ؟

وكجِدّ عنترةَ بن شـداد فى الفروسـية إذ أتى فى الحماسة [٥] بما لم

(١) هى الأسواق الثلاث المشهورة عند العرب وأعظمها سوق عكاظ وكان يقام بين نخلة والطائف فى موضع لا يبعد عن الطائف أكثر من عشرة أميال ودلك ن أول يوم من ذى القعدة الذى هو أول الأشهر الحرم وكانت العرب تجتمع فيه للتجارة والتهيء للحج فيؤمن بعضهم بعضاً ويتناشدون ويتفاخرون ويتسوقون الى حضور الحج ثم يحجون   (٢) الأغانى ٣ : ٢٥   (٣) الأغانى ٥ : ٢٥٢
(٤) الأغانى ٣ : ١٦١ والموازنة والمستطرف ١ : ٧٧   (٥) الأغانى ٣ : ١٨٨

يأت به أحد مثله كقوله .

لو سابقتنى المنايا وهى طالبةٌ قبضَ النفوس أتانى قبلها السَّبَق

وكفتح حاتم الطائى يدَه فى سَعَة العطاء بحيث إنه يتهلل بذكر السماحة والمكرمات فى جميع شعره ويقول [1]

أماوىّ إن المال غادٍ ورائح ويبقى من المال الأحاديثُ والذِّكْرُ

أماوى أن يصبح صداى بقفره من الأرض لاماء لدىّ ولاخمر

تَرَىْ أنّما أنفقتُ لم يك ضائرى وأنّ يدى مما بخلتُ به صِفْر

وكارتفاع السموأل بن عادياء فى درجات المحاسن الشريفة بحيث إنه أتى من ذكر الوفاء والمفاخرة به بما يرفعه إلى أسمى طبقات الشعر وهو الذى يقول

إذا المرء لم يدنَس من اللؤم عرضُه فكل رداء يرتديه جميل

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلت لها إنّ الكرام قليل

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ يوماً حيث كان قتيل

وكانقطاع أميَّةَ بن أبى الصَّلْت إلى العبادة بحيث إنه أتى فى ذكر أحوال الآخرة بما لم يشاركه فيه متقدم ولا متأخر [2] وإن قوله

يوشِك من فرّ من منيته فى بعض غِرّاته يوافقها

من لم يمت عَبْطَةً يمت هَرَما للموت كأس والمرء ذائقها

لأحكم ماقالته العرب فى وصف الموت [3] الى غير ذلك مما لا يتسع له المجال فنقف منه عند هذا الحد

---

(١) الاغانى ١٦ : ٩٦ والعقد الفريد ١ : ١٠٨ (٢) الاغانى ٣ : ١٨٨

(٣) العقد ١ : ٣٧٥

وقد انتهت بلاغة الشعر إلى المعلقات السبع وهى أصدق شاهد على فضل المتقدمين بما قصدوا من انسجام القول ونعت ضروب الوجدان التى تدل على أَنَفَة النفس وعلو الهمة على غير تكلف البلاغة، بما نعلم من إنشادهم إياها ارتجالا بين العشائر فان الحارث بن حِلِّزة لما أنشد عمرو بن هند معلقته توكأ على قوسه وأنشدها واقتطم كفّه وهو لا يشعر من الغضب حتى فَرَغ منها، (١) فيظهر من ذلك أنه كان لهم فى الشعر سر ضاع عن المحدثين سره لانقلابه فيهم من الطبيعة إلى الصناعة، لأن العرب كانوا شعراء جميعاً وكلُّهم يرتجز فى حرب أو استجداء أو مفاخرة، (٢) وكانت الحكمة سائرة على ألسنتهم كما شهد لهم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك حتى إذا أنشدوه قول طَرَفة من أصحاب المعلقات

ستُبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

قال هذا من كلام النبوة، (٣) ثم إنّ النساء كنّ يقلن الشعر أيضاً فى أيامهم حتى إنّ بعضهن قد فضُلن كثيراً من الرجال مثلُ ليلى والخنساء وكلتاهما شاعرة فصيحة، ولقد وجدت من كلام ليلى فى وصف الشجاعة ضروباً من الابداع كقولها (٤)

مهفهف الكَشْح والسِّرْبال منخرق عنه القميص لسير الليل محتقر
لا يأمن الناسُ مُمْساه ومُصْبحه فى كل فج وان لم يغزُ يُنْتَظَر

ووجدت فى تأبين الخنساء لصخر توجعاً كثيراً بالبكاء عليه حيث تقول

يذكّرنى طلوعُ الشمس صخراً وأذكره لكل مغيب شمس

---

(١) أبو عبيدة والأغانى ٩ : ١٧٨ (٢) الأغانى ١٨ : ٦٤ (٣) العقد الفريد ٣ : ١٢٢ (٤) الأغانى ١١ : ١٧

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزّى النفس عنه بالتأسى

وتقول فى رثائه وهى تصف محاسنه

إذا القوم مدّوا بأيديهم إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضَى مُصْعِدا

وتقول وهو أفخر بيت قالته العرب

وإنَّ صخراً لتأتم الهداة به كأنه عَلَم فى رأسه نار

ولها من أمثال هذا الكلام شىء كثير [1] يرفعها الى مساماة البلغاء من الرجال

وقد أجاد المتقدمون فى براعة الاستهلال إلى حيث يقف حد البلاغة، وهم يصفون الرُّكبان والطَيْف ويذكرون ربوع الأحباب وتعفيةَ الرياح رسومها ومخاطبتَهم إياها فيما مضى لهم من عهود الأنس ويصفون ألم الفراق ووحشةَ الديار وما يخالج قلوبهم من الصبابة فى وقوفهم بالعيس على اطلال الديار [2] إلى ان يتخلّصوا من هذا الاستهلال إلى مايرون إنشاده فيما

---

(١) الاغانى ٦ : ٨٣ و ٩ : ١٦٣ و ١٤ : ١١٦ والعقد ٢ : ٢٣ وديوان الحماسة والاتليدى ٢٥

(٢) انما ابتدأ الشاعر بوصف الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل من ذلك سببا لذكر أهله الظاعنين من ماء الى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم فصل ذلك بالنسيب وأبدى شدة الوجد وألم الصبابة والشوق لتميل نحوه القلوب وتنصرف اليه الوجوه ويستدعى اصغاء الاسماع فاذا استوثق من الاصغاء اليه والاستماع له وعقب بايجاب الحقوق ودخل

يأخذون به من المذاهب ، ولكن على انحطاط يقع فيه الكثير منهم بعد بلاغة الابتداء ، إلاّ الذين يتوسطون بالبلاغة فى مطلعهم فيستمرون إلى آخر بيت على استواء ، أو الذين يعلُون علوًّا حسناً ثم لا يزالون صاعدين فى بلاغة تُعجز الفصحاء ، ولكنهم نفر قليل مثلُ امرئ القيس وزهير بن أبى سُلمى والنابغة الذيبانى وهم المقدَّمون على جميع الشعراء ، وموضعُهم من البلاغة واحد ، (١) إلاّ أنه غَلَب على ذى القروح التجمُّلُ بالمعانى وبديع الوصف ، وعلى النابغة الاسترسالُ فى البراعة ، وعلى زهير العنايةُ بتقويم الالفاظ . وقد سمِعت الأَصْمَعِىّ يقول وقد سئل من أشعر العرب ، الذين شرّق شعرُهم وغرّب ؟ فقال « زهيرٌ اذا رغِب ، والنابغةُ اذا رهِب وامرؤ القيس اذا طرِب . وعنترة إذا ركِب . والأعشى إذا شرِب ، (٢) ولئن يكن فى تفضيل الشعراء بعضِهم على بعض عسرٌ لا يؤمن معه الزلل ما أنا براء فى أبياتهم ما يسمو إلى كلام النابغة فى الفخر حيث يقول (٣)

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفَهم ... بهن فُلُول من قِراع الكتائب

ولا إلى براعة زهير فى المديح وقد ألقى عن المادحين فضول الكلام بقوله (٤) .

وإن يك من خيرٍ أتَوْه فانما ... توارثه آباءُ آبائِهم قبلُ

ولا إلى جمال الوصف الذى نظمه امرؤ القيس فى معلقته نظمَ اللآلئ

فى شعره وشكا السهر والتعب وسرى الليل وقرر ما ناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعث فى ممدوحه الميل الى المكافأة وفضله على الاشياء وصغر فى جنب قدره الجزيل وهزه إلى الفعل الجميل ، الحصرى ٢ : ٢٧٤ (١) الاغانى وكتاب الموازنة (٢) الاغانى (٣) خزانة الادب ٥١١ والاغانى ٩ : ١٥٨ (٤) الاغانى

فى شذور الذهب فقد لا تحضُر البلغاءَ أنفسَهم عبارات يفْصِحون بها عن محاسن كلامه الذى ذهبَ مذهب المعجزات ، فان العرب لم ينفكوا عن الإعجاب بها وهى معلقة فى الكعبة إلى أن ظهر الاسلام وذهبت فصاحة الشعر بما نزل من كلام الله تعالى على سيد ولد آدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الذين دُونَ طبقة هؤلاء من الجاهليين فان لهم من محاسن الشعر موضعاً لا يتعدَّوْنه إلى التصرف فى المذاهب الواسعة كانفراد أبى داود بوصف الخيل ، وعَلْقمة بوصف الوحش ، وأوس بن حَجَر بوصف الخمر إلى غير ذلك ، [1] وليس فيهم أقرب إلى طبقة الثلاثة المتقدمين من الأعشى بن جندل الأسدى [2] فان له أبياتاً حِساناً ذكر منها هذا البيت الذى هو أشجع بيت قالته العرب .

قالوا الطِّعان فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فانا معشر نُزُل

ولكنى وجدته إذا تعالى فى شعره كثيراً لم يؤمن وقوعه فى الانحطاط ، [3] وربما أتى من الألفاظ بالغريب الذى يبعُد عن الأذهان ، وهذا شىء يصح أن نَعيبه عليه وعلى غيره من الجاهليين وإن كان بعض الناس يجدون له مخرجاً إلى السلامة من العيب إذ يجوِّزون للمتقدِّمين ما لا يجوزونه للمتأخرين .

---

(١) الاغانى ١٥ : ٩٠ و ٩٦ (٢) الأغانى ٩ : ١٤٠

( ) الموازنة والأغانى .

الشعر فى الحضارة

ولقد وجدت فى شعر الاسلاميين المتقدمين علوًّا كادوا يسامون فيه أهل الجاهلية ، ولذلك يصح أن نعترف لهم بمحاسن البلاغة مثل الأَخْوَص وذى الرُّمة وحسان بن ثابت وعمر بن أبى ربيعة والقَطامى وجرير والفرزدق والأخطل وجميل وكُثَيِّر وكثير غيرهم ، فان لشعرهم من رقة الديباجة والرونق والحلاوة ما لا نجده إلاّ فى شعر البلغاء من الجاهليين ، وربما انتهى بعضهم فى المذاهب التى كانوا بها آخذين إلى حيث تقف بلاغة الشعر كذكر الحماسة فى كلام حسان بن ثابت حيث يقول .

لنا الجَفَنات الغُرُّ يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

وكالاستئثار بالفخر فى شعر الفرزدق الذى يقول فيه [١]

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وَقَّفوا

وكالتوجع فى الرثاء فى قصيدة الهذلىّ التى يجزع فيها على فقد أولاده إلاّ طفلا صغيراً بقى له ومن جملتها البيت المشهور [٢]

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنَع

وكالتشبيب فى شعر جميل وذى الرمة وعمر بن أبى ربيعة [٣] بحيث إنّ لهم فى ذكر محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع عذوبة الألفاظ وجودة السبك لا ما يوجد مثله لأحد من شعراء العرب غيرَ الثلاثة المتقدمين إلى غير ذلك .

---

(١) العقد والأغانى والكشكول (٢) العقد والأغانى (٣) صاحب الاغانى يفضله على شعراء زمانه وربما فضله فى النسيب على شعراء الجاهلية

ثم إنّ الشعر يقع فى الحضارة بعد هؤلاء المجيدين ويفقد كثيراً من البلاغة التى كانت فى لسان الجاهليين لابراز المعانى فى فصيح الكلام إلاّ أنه لا ينحط عنه فى الأوصاف البارعة وتناول المعانى من حيث الشعرُ نفسُه ، فلقد نجد لبعض المحدَثين من سعة التصرف فيه وسرعة الخاطر إلى النظم ما يجعلهم لولا تأخر أيامهم فى طبقات المتقدمين ، على أن كلامهم ليس من الفصاحة بالموضعَ الذى كان للجاهليين ، والعذرُ لهم فى ذلك أنّ شاعر البادية إنما كان يلتمس الفصيح من الألفاظ ليسموَ كلامه على كلام غيره من الشعراء ، واللغاتُ إذ ذاك كثيرة فى عشائرهم ، أما اليومَ فان اللسان الذى نزل به القرآن معروف لدى كل انسان فلا يُضْطَرُّ الشاعر إلى التماس ألفاظ يفضُل بها لسانَ غيره لتوحد لغة قريش فى الامصار كافة . وإنما وجب عليه أن يبتدع المعانى التى لم يَسْبِق إليها غيرُه دون تكلفه إلى تناول الغريب من الكلام ، (١) لأن الألفاظ السُّوقية لا تمنع (٢) أن تكون القصيدة جيدة .

ولقد ينقسم الشعر فى الاسلام (٣) إلى طبقات ثلاث أقربُها إلى فصاحة البداوة أبعدُها عن حضارة الاسلام . أولُها عصر عبد الملك والشعرُ إذ ذاك فى ثلاثة من تميم (٤) وهم جرير والفرزدق وهو من نَبَغَة (٥) الشعراء والأخطل النَّصرانى وهو المجيد فى مدح الملوك (٦) ووصف الخمر ، وكان المقدمَ عليهم

---

(١) ذكر الاغانى ٣ : ١٤٥ أن الشعراء يستعملون الغريب من الالفاظ (وذلك فى زمن الرشيد) (٢) الاغانى ٣ : ١٣٣ و ١٧٣ (٣) أى فى المتمصرين من الشعراء دون أهل البادية (٤) الاغانى ١٩ : ٦ (٥) الاغانى ٩ : ١٤٧
(٦) الاغانى ٩ : ١٤٧

جريرٌ وقد فضَل الشعراء [١] بقوله فى المديح .

ألستم خيرَ من ركِب المطايا   وأندى العالَمين بطونَ راح

وقوله فى النسيب [٢] .

إنّ العيون التى فى طرفها حوَر   قتلننا ثم لم يُحْيِينَ قتلانا

يصرَعن ذا اللبّ حتى لاحرَاكَ به   وهن أضعفُ خلق الله إنسانا

وهذا من الكلام الذى تتناهى إليه رقة أهل الصبابة ، ولم نجد مِن بعده مثلَه إلاّ فى شعر جميل وكثيّر وقد استرسلا فى وصف حياة الشباب وانقطعا إلى النسيب [٣] من مذاهب الشعر ، يقول كثير [٤]

أريدُ لأنسى ذكرَها فكأنما   تُمَثَّلُ لى ليلى بكل سبيلِ

ويقول جميل

وما زلتمُ يا بُثْنُ حتى لو أُننى   من الشوق أستبكى الحمامَ بكى ليا

وما أَحدث النأىُ المفرِّقُ بيننا   سُلُوّا ولا طولُ الليالى تقاليا

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخلُصَ منه لا علىّ ولا ليا

ومن كلامه [٥]

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما   قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟

وأول الأبيات قوله .

لقد فرِح الواشون أنْ صرَمَتْ حبلى   بُثَيْنَةُ أو أبدت لنا جانبَ البخل

---

(١) الاغانى ١٠ : ٢ وفى غير موضع والوطواط ١١١ وابن خلكان ١ : ١٤٣ والعقد الفريد ١ : ١٥١ (٢) الموازنة ٤ (٣) الاغانى ٤ : ٥٨ والكشكول والعقد الفريد ٣ : ١٧٢ (٤) الاغانى وتزيين الاسواق وابن خلكان والمستطرف (٥) الاغانى والعقد الفريد ١ : ١٤٦ والحصرى ٢ : ١٦٣

يقولون مهلاً يا جميل وإننى لأقسم ما بى عن بثينة من مهل

والناس يستحسنون ذلك . ولا يقاربه فى النسيب إلاّ قولُ الأحوَص[١]

إذا قلت إنى مشتفٍ بلقائها فَحُمَّ التلاقى بيننا زادنى سقما

وأما الطبقة الثانية فانها عصر أبى جعفر (رحمه الله) وشعراؤه من تقدم لك ذكرهم . والطبقة الثالثة هى زمن الرشيد والبرامكة وشعراؤها أكثرُ من أن يأخذهم الاحصاء ولكنى لا أرى فيهم إلاّ أبا العتاهية وأبا نُواس ومُسْلِم ابنَ الوليد وهم أشعر أهل هذا الزمان كما ستراه .

فأما أبو العتاهية فانه انقطع فى شعره إلى ذكر أحوال الآخرة[٢] وله أرجوزة حوت أربعة آلاف بيت أودعها من المعانى الجليلة ما أبرزه فى أحسن صورة . من ذلك قولُه « روائح الجنة فى الشباب » وهو قول يقبله القلب ولا يفسره اللسان ،[٣] والناس يقولون إنه خرج عن العروض بوزن لم يذكره الخليل بن أحمد ولكنى لا أرى ذلك خطأ يعاب به كمن يتطاول على قواعد العلوم ، لأن الخليل لم يستوف الكلام فى هذا العلم الذى وضعه ولا سيما فى بحر المتدارك ، فانّ من العَرُوضيين من زاد فيه على ما ذَكَر ،[٤] وقد كان أبو العتاهية من الحُظْوة عند الرشيد بحيث لم يفارقه فى حَضَر ولا فى سفر ،[٥] ثم آل أمره إلى الزهد[٦] فلبس الصوف وعزَفت نفسه عن الدنيا وكان يقول[٧] .

كانَّ كل نعيم أنت ذائقُه من لذة العيش يحكى لَمْعَةَ الآلِ

---

(١) الاغانى ٤ : ٥٧ (٢) الاغانى ١١ : ٣٢ (٣) الاغانى ٣ : ١٤٣
(٤) المسعودى ٢ : ٢٦٥ (٥) الاغانى ١١ : ٣٢ (٦) الاغانى ١١ : ٣٢
(٧) الاغانى ٢ : ١٦٢

فصار إذا دعاه إليه ليصف له ما هو فيه من زخارف الملك يبادره بالتذكير والموعظة [١] فيبكى الرشيد من ذلك فيهُم الجُلاَّس إلى معاتبته فيقول لهم الرشيد دعوه إنه يرانا فى عَمًى فيكره أن يزيدنا منه .

وأما أبو نُواس فان مذهبه فى الشعر مُضَادٌ لمذهب أبى العتاهية وأكثرُ ما يتضمنُ شعرُه الغزلُ والزهو وذكر المنادمة والخمر تبعاً لما نعرفُ لهُ من ممازحة الملوك ، [٢] فهو يذكر إبليس والخمر فى شعره كما يذكر أبو العتاهية الآخرة والجنة .

ومن استعاراته الفائقة قوله

بسَم الصباح لأعين النُّدَماء   وانشق جيب غِلالة الظلماء

وله فى صفاتها ونعت طعمها وريحها ولونها وشعاعها وحال المنادمات عليها والاصطباح والاغتباق [٣] ما توسع فيه إلى أدب ليس للشعراء حظ منه ، وهذا مما يدل على اقتداره فى الشعر وان كان مذهبه غيرَ محمود عند أهل الصلاح ، وهو عندى شاعر الشعراء حقيقة ، [٤] وإنى أفضل شعره على شعر أبى العتاهية لأن قصائده كلَّها سالمة من العيب ، [٥] أما أبو العتاهية فانه وان كانت له استخراجات لطيفة ومعان ظريفة يقول البيت النادر ثم يتبعه بالبيت السخيف البارد ، [٦] وقد ذكر لى ورّاقٌ فى درب القراطيس [٧] كنت آلفُ حانوته أنه مرّ به أبو العتاهية يوماً وعنده ديوان

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٩ والفخرى ٢٣٠ والطرطوشى ١٧ والكشكول
(٢) الاتليدى وحلبة الكميت وتزيين الاسواق (٣) المسعودى ٢ : ٤٢٢
(٤) ذكر صاحب العقد الفريد فى باب من الرقائق من المجلد الثالث أن أبا نواس من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيه (٥) القيروانى وابن خلكان (٦) الأغانى ٣ : ١٨٠ (٧) من شوارع بغداد ذكره ابن خلكان ١ : ١٦٥

لأبى نواس فوقع نظره على هذا البيت[١]

لن ترجع الأنفسُ عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

فسألنى لمن البيت فقلت لأبى نواس فقال والله إنى أحب أن يكون لى هذا البيت بنصف شعرى ،[٢] وأظن أنه لو وقف على قوله .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد[٣]

أو قوله وهو أمدح بيت للمحدَثين

وكّلتَ بالدهر عيناً غير غافلة بجود كفك تأسو كلَّ ماجَرَحا

لقال فيهما مثل ذلك . ولقد لقيت اسماعيل بن نَوْبَخت فى مجالس البرامكة وقد جرى الحديث بحضرتهم عن الشعراء فقال سمعت بعض الناس يقول إنّ الأَصْمَعِىّ أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، فوالله ما رأيت أحق بهذا الوصف أنْ يقال فيه من أبى نواس ، لأنى ما رأيت فى أهل الأدب من هو أوسع علماً فى كل شىء منه وليس له فى الشعراء من مُبَارٍ ، يعلَق له بغبار . وكفى فى تحقيق فضله عليهم أن كلامه كلَّه موزون[٤] فانّ الشعر رسخت فى صدره ملكته وصار فى نفسه طبيعة ترفعه على جميع الشعراء . وأما مسلم بن الوليد الملقب بصريع الغوانى فانه أرق الشعراء غزلاً وألطفهم صنعاً وأكثرهم من المعانى حظاً[٥] إلاّ أن ميله مع أهل البيت وقولُه الشعر فى مديحهم هو

---

(١) ذكر صاحب العقد الفريد هذا البيت فى الأمثال السائرة وأبدل بالشطر الثانى قوله « حتى يرى منها لها واعظ » .

(٢) الطرطوشى ١٠

(٣) لاغانى واليتيمة ١٠٢ وخزانة الأدب ٥٠٠

(٤) ابن خلكان

(٥) ذكر له ابن الأثير ٦ : ٥٢ بعض أبيات فى عرض التاريخ وقال انها حسنة جداً وذكر الحصرى أيضاً جملة أبيات وقال ان الطائى كان يعول عليه وعلى أبى نواس وان مسلماً أول من لطف البديع . وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع

الذى جعله مقصياً عن محاضرة الخلفاء ، بل جعل فى نفوسهم موجدة عليه لِمَا كانوا يرون من استمساك الناس بشعره ، وقد أبدع مصاغه ورصّعه بدرر البلاغة ، ولقد ظفر به الرشيد فحمد الله على ذلك بمحضر من الجلساء كأنما قد ظفر بملك من كبراء الملوك ، فلما أخذ يعاتبه قال إيه يامسلم أنت القائل .

أنس الهوى بنى علىّ فى الحَشا وأراه يطمح عن بنى العبـــاس

فأعمل فكرته أن يستبدل به مدحاً علّهُ يشفع له عنده ويكون وسيلة لسلامته من القتل وقال بل أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول .

أنس الهوى بنى العمومة فى الحشا مستوحشاً من سائر الايناس
وإذا تكاملت الفضائل كنتم أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب الرشيد من سرعة بديهته وقال له بعض جلسائه استبقه يا أمير المؤمنين فانه من أشعر الناس [1] وامتحنه فسترى منه عجباً فرق له الرشيد وفى نفسه من الميل الى الأدب ما قد علمتَ ، ثم قال له أنشدنا أشعر بيت لك ، فقال يا أمير المؤمنين أفرِخ روعى أفرَخَ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك فانى لم أدخل على خليفة قط ، فأمره بالجلوس ثم شرع فى الانشاد وكلما فرغ من قصيدة قال له التى تقول فيها « الوَحْل » فانى رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذى أوله .

أديرا علىّ الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذَحْلى [2]

حتى إذا انتهى إلى قوله .

---

(١) كان مسلم ابن الوليد من أشعر الناس ولكنى لم أر له ترجمة فى الأغانى ولا فى ابن خلدون وما نقلته هنا مأخوذ من كتاب العقد الفريد ١ : ٩٠ (٢) فى المجلد الثالث من العقد الفريد ١٧٦ سبعة أبيات أخر من هذه القصيدة

إذا ما علت منا ذُؤابةَ شارب تمشت بنا مشىَ المقيدِ فى الوَحْل

ضحك الرشيد وقال عليك ! أما رضيت أن تقيده حتى يمشى فى الوحل ؟ ثم أمر له بجائزة وخلّى سبيله .

هؤلاء الثلاثة أشعر الشعراء وهم الذين زينوا الدولة العباسية كما كان الثلاثة المقدَّم ذكرُهم فى الفصل السابق يزينون زمن الجاهلية ولقد لقيت فى بغداد كثيراً غيرهم من الشعراء مثل العُمانى وأبى مُصْعَب وأبى الشيص وأبى عبد الرحمن العطوى وغيرهم ، واتصلت بى أخبار جماعة ممن يتصرفون فى فنون الشعر ويبتدعون القول الذى لم يشركهم فيه غيرُهم إلى أن ينظموا القصائد التى ليس فى أبياتها حرف معجم .إلاّ أنهم قد كانوا فى أيام أبى نُواس ومسلم بن الوليد فضاع بينهما فضلُهم ولم يكن لهم ذكر فى مجالس الخلفاء وأهل الأدب .

الغناء وتحريره وإصلاحه

قد مضى فى بعض كتبى السالفة من الكلام عن الغناء ما يقضى بصحة ذوق العرب وحسن ما يصنعون من الأصوات ، وكان أصله عندهم أربعةَ نفر[1] ابن سُرَيج وابن مُحْرِز وهما مكيان ومالك ومَعْبَد وهما مَدَنيّان ، اذ كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهى المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودُومةُ الجندل واليمامة ، وهذه البلاد مجامع أسواق العرب ،[2] وكانت النساء يشاركنهم فى صناعة الأصوات ، وقد نبغ فيهن عَزّة الميلاء فى الغناء الموقَّع الى أن صارت أحسن

(١) الأغانى ١ : ٩٨ (٢) العقد الفريد ٣ : ٢٤٧

الناس ضرباً بعود ،[١] وكان لها أستاذة يقال لها رائقة فاحتذت فنها فى تنسيق الأنغام ، ثم قدم الحجازَ سائب ونشيط وغنّيا بالفارسية ، فأخذت عزة عنهما نغما وألّفت عليها ألحاناً كثيرة لينة كما نجد فى غناء النساء ،[٢] ثم ظهر طُوَيْس المغنى فصنع الرَّمَل والهَزَج[٣] وأولُ ما غنّى به على لحن صنعه قولُه[٤]

قد برانى الشوق حتى كدت من وجدى أذوب

ثم غنى ابن مِسْجَح الغناء المنقول من الفارسى[٥] وشَهَره بين الناس ، وكان ابن سريج يضرب بالعود على غنائنا الى أن ظهر معبد فى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التحية فصنع من الأصوات البديعة ما فضَل فيه غيرَه من أهل زمانه المعاصرين له

وقد كان الغناء قبل نقله عن الفارسية مأخوذاً عندهم عن الأذان ،[٦] فلما نقلوه عن قومنا واستعانوا بكتاب لبطليموس فى اللحون الثمانية[٧] عرّبوه فى خلافة أبى جعفر[٨] أجادوا تأليف الأصوات إلى أن فضَلونا اليوم فى الغناء ونبغوا فيه النَّبْغَةَ التى ما كنت أحسَبهم يصلون إليها فى زمن من الأزمان ، وما مكّنهم من استكمال هذه الصناعة إلاّ أمران . الأول انفراد كل واحد منهم بلحن من الألحان يفتنّ فيه ويصنع فيه الأصوات الحسان حتى يفوق ألحان غيره من المغنين كانفراد معبد بالثقيل ،[٩] وابن

---

(١) الأغانى ١٦ : ١٣ (٢) الأغانى ٥ : ٥٧ (٣) الأغانى ٤ : ٣٨
(٤) الأغانى ٤ : ٣٧ (٥) المستطرف ٢ : ١٨٨ والعقد الفريد ٣ : ٢٣٧
(٦) ابن خلكان ١ : ٥٧١ (٧) الأغانى ٨٩٥ (٨) ابن نباتة
(٩) الأغانى ٦ : ٦٦

سريج بالرَّمل ، وحكم الوادى بالهَزَج [١] وأحمد النَّصيبيّ بالانصاب [٢] وفليح ابن أبى العوراء بلحن النواقيس ، والمَوْصِلِيّ باللحن الماخورى ، أما خفيف الرمل فانهم يشتركون فيه جميعاً بحيث لم أجد مغنياً إذا تغنّى لنفسه يكاد يغنى إلاّ خفيف الرمل ،[٣] والثانى ما كانوا يتناولونه من الخلفاء جوائزَ ومن الأمراء وأهل النعمة أجرةً واسعة على غِنائهم ممن يستدعيهم إلى فرح أو يجمعهم لمناظرات الصناعة ثم يُخْرِج بدَر الدنانير لأجازة المحسنين [٤] منهم لم ولقد سئل حُنَيْن المغنى وقد دُعِىَ إلى مَأْدُبة لا يعهد فى صاحبها السماحة ، لا ترضَى بالأجرة اليسيرة ؟ فقال إنما هى أنفاسى أقسّمها بين الناس ، أفتلومونى أن أُغْلِىَ بها الثمن ؟

ثم ظهر عصر البرامكة (أعز الله ملكهم) وهم محبون للعلم ومقرّبون اليهم أهلَ الأدب ، فكان ممن قربوه من المغنين ابراهيمُ المَوْصِلِيُّ وابنه اسحق ، وهما بمكان جليل من الأدب إلاّ أنه غلب عليهما الغناء بما وضعاه من الألحان فاشتهرا به كما رأيت . وقد وضع أبو اسحق اللحن الماخوريّ الذى لم يشرَكه فيه أحد من المغنين ، وكان يَظُنُّ لصعوبة المأخذ فى ابتداعه أن إبليس هو الذى ألقاه عليه فى المنام ، فلقد طالما تهوّس بالغناء وأمعن فى تنسيق الألحان على أتم ابداع وأحسنه موقعاً فى النفوس حتى توهّم أن الأرواح هى التى كانت تُظهره له وتعلمه الأصوات التى يعجز عنها غيرُه من الأنس ، وقد قالت الشعراء فى مدحه على موضعه الجليل من الغناء

---

(١) الأغانى ٥ : ١٤١ و ٦ : ١٣ (٢) الأغانى ٥ : ١٦١
(٣) الأغانى ٧ : ٣٦ (٤) الأغانى ١٤ : ٥٥ .

ما لإبراهيم فى العـلم بهذا الشأن ثانى
إنما عُمْـر أبى اسـحق زَيْنٌ للزمان
جنـة الدنيا أبو اسـحق فى كل مكان
منـه يُجْنَى ثمرُ اللهـو وريحان الجنان

وكذلك كانت إجادة ابنه اسحق وقد وضع ألحاناً لا يقدِر شبمان ممتلئ ولا سَقَّاء يحمل قِرْبةعلى الترنم بها ، وصَنَعَ غيرها مما لا يقدر المتكئ أن يترنّم به إلاّ قعـد مستوفزاً ، ولا القـاعد حتى يقوم ، [1] لأنه سما فى اقتداره على الغناء إلى أن يجعل فى نفس السامع تحركا لما يُغنّى بمعناه من الأشعار ، فيحملها على الكِبْرفى معرض المديح ، وعلى الحماسة والاعجاب فى مجال الفخر ، وعلى الرقة والصبابة فى استرسال الهوى ، وعلى البـكاء والغصة فى موقف التذكير والوحشة ، وذلك فضلا عن إجادته فى ضرب العود ، ولقد كنت يوماً بدار الرشيد وفى مجلسه عشر جوار يضربن على العيدان فوقع خلل فى مجرى إصبع على بعض الأوتار فعرفه من بين أربعين وتراً [2] تتحرك بين أناملهن ،فهذا اقتدار غريب على هذه الصناعة لا أظن أن اليونان قد بلغوه منهـا مع اتصال مدتهم أجيالا طوالا يستعملونها ويمارسون طرائقها .

---

(١) الاغانى ٣ : ٧٩ (٢) الاغانى ١ : ٢٠ وفى الحصرى ٢ : ٢٠٦ قال اسحق انما يجيد الغناء من يقرع مسمع كل واحد من الناس بالنحو الذى يوافق هواه ويطابق معناه

وقد كتب إسحق رسالة مطولة فى الغناء صحح فيها أجناسه وأنغامه وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه سواه[١] حتى لقد خطّأ يحيى المكّى فيما دوّن من الغناء ويونس الكاتب فى الرسالة التى نسب فيها الأصوات الى من ابتدعها من المغنين[٢] إلاّ أنه كان يرى ليونس فيما سبق إلى تدوينه من الأغانى ونسبتها إلى أصحابها فضلا أعظم من فضل يحيى فيما حاول تمييزه من الغناء على فساد جعل كتابه كالمطروح لكثرة تخليطه فى رواياته ،[٣] لأن هذا هو المذهب الذى يتعصب له إسحق ويناظر فيه من يقول بضده من أولاد الخلفاء وغيرهم كما مرّ فى موضعه من الكتاب .

ومن حذق إسحق فى صناعة الأنغام أنه أقام طرائق الغناء من نفسه دون نقل عن كتب اليونان إلاّ فيما اقتبسه من تقسيمات أقليدس[٤] وما هو إلاّ النزر اليسير فى جانب الكثير الواسع من علمه ، فقد ميّز[٥] أجناس الغناء كله ، وجعل الثقيل الأول أصنافاً ، فبدأ فيه باطلاق الوتر فى مجرى البِنْصر ثم أتبعه بما كان منه بالبنصر فى مجراها ثم بما كان بالسبابة فى مجرى البنصر ثم فعل هذا بما كان منه بالوُسْطَى على هذه المرتبة ، ثم جعل الثقيل الأول صِنفين الأول ما ذكرناه والثانى القدر الوسط من الثقيل الأول وأجراه المجرى الذى تقدم من تمييز الأصابع والمجارى وألحق بذلك جميع الطرائق والأجناس وأجراها على هذا الترتيب وميزها على أكثر من عشرة آلاف صوت للمغنين لم يغيّر فيها لحناً واحداً ، وذلك بخلاف الذين دوّنوا

---

(١) الاغانى ٦ : ١٨ (٢) الأغانى ٥ و ٦ (٣) الاغانى ٦ : ١٧
(٤) الاغانى ١٥ : ٨ (٥) الاغانى ٥ : ٥٢

الغناء قبله و بعده فانهم أضاعوا صناعة الغناء القديم إلا أحمدَ بن يحيي المكى المقدم ذكره فى كتاب له فى الأغانى ونِسَبها يقال له المجرّد ، [١] فانه أصل يرجع اليه ويعول عليه ، ولست أعرف كتاباً بعد كتاب إسحق يقارب كتابه أو يقاس به ، فكأنه قام على مخالفة أبيه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين، ورجع إلى الغناء القديم الذى سبق إلى التعصب له مغن يقال له « سِياط » وفد على المهدىّ رحمه الله وأنا مقيم فى الرسالة بخراسان فلم أوفق إلى الاجتماع به ، ولكن حسبى من تقدير موضعه الجليل من هذه الصناعة [٢] أن إبراهيم وإسحق تلميذاه [٣] وإليهما المنتهى فى إجادة الغناء .

لُمْعَة فى علوم الفلسفة عند العرب

إن العلوم الفلسفية التى استخرجها العرب من كتب الأعاجم كانت مجهولة عندهم فى صدر الاسلام بل فى صدر هذه الدولة كما تقدم لك من الكلام إلا عند نفر قليل من أهل الشام ممن جاور الرهبان وتلقى عنهم [٤] حكمة اليونان التى كانوا يحفظونها فى خزائنهم بالأديار ، أما اليوم فانا نجدها فى سكان الأمصار من العراق ومصر والشام و بعض أهل الحجاز إلا أعراب البادية لأنهم لا يوجهون عنايتهم إلى العلم ، وانما همّهم ارتياد المسارح والمزرع لحيواناتهم كما سبق الالماع إليه فى صدر الكتاب .

وهذه العلوم الفلسفية تنقسم إلى أنواع أربعة [٥] رياضية ومنطقية

(١) الأغانى ١٥ : ٦٥ (٢) الأغانى ٦ : ٦٥ (٣) الاغانى ٦ : ٩

(٤) المقدمة ٤١٩ (٥) حاجى خليفة : ٤٦٢

وطبيعية وإلهية . فأما العلوم الرياضية وهى النجامة والعَدَد والهندسة والغناء فانهم نبغوا فيها النَّبْغَة التى لم تكن المتقدمين من أمم الشرق ، وقد تقدم فى الكلام على النجامة ما يقضى بفضل المنجمين من أهل المَوْصِل وخُراسان وغيرهم فيما وقفوا عليه من علم الأفلاك وأرصادها ، كما أنك رأيت فى الكلام على الغناء أن لابراهيم وابنه اسحق فيما ابتدعاه من الأصوات الحسان فضلا تتزين به هذه الصناعة عند العرب . واعلم (أرشدك الله) أنه لم يكن موضعهم من العلوم العددية وما يتبعها من الجبر والمقابلة وهى صناعة استخراج العدد المجهول من قِبَل المفروض المعلوم[1] إلاّ موضعَهم من النجامة والغناء فى تحريرها وإصلاحها والاعتبار فى الأقسام التى تلتحق بها من فن المناظرة والفرائض والمعاملات بتقدير الأوزان وغير ذلك ، وهذه هى العلوم التى يمتازون بها عن غيرهم من الأمم بما وضعوه لها من القواعد التى لا غاية بعدها فى الاصلاح .

أما علم الهندسة فقد كان مرجعهم فيه إلى كتاب لاقليدس المهندس من حكماء اليونان وكتاب آخر لبطليموس الذى أخرج الهندسة من القوة إلى الفعل ،[2] وقد عُرِّبت رسائلها فى خلافة أبى جعفر ثم أعيد تعريبها فى هذه الأيام بمناظرة مهندس يقال له أبو كامل[3] جعل مقالات اقليدس فى جلد كبير سماه كتاب الأركان ،[4] وفيه خَمْسَ عَشْرَةَ مقالة يبحث فى الأربعة الأُول عن السطوح ، وفى الخامسة عن الأقدار المتناسبة ، وفى السادسة عن نسب السطوح بعضِها إلى بعض ، وفى السابعة إلى التاسعة عن العدد ،

(١) المقدمة ٤٣٢ (٢) ابن نباتة (٣) هو مهندس ذكره الاغانى ٦ : ١٩١ (٥) المقدمة ٤٢٤

وفى العاشرة عن المِنْطَقات ، والقوى على المنطقات ومعناها الجذور ، وفى المقالات الخمس الباقية بحث واسع فى المجسّمات ، ثم ألحق العرب بهذا العلم فنَّ الهندسة المخصوصة بالأشكال الكروية نقلا عن كتابين لميلاوش وتاودوسيوس من اليونان وفيهما بحث مسهب فى الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر بأسباب الحركات ، وألحقوا به أيضاً علم المخروطات نقلا عن كتاب لابولونيوس[١] من اليونان أيضاً فعرفوا مايقع من الأشكال والقطوع فى الأجسام المخروطة وأفادوا النجارة والبناء[٢] بما وقفوا عليه من كيفية رفع الأثقال وجرها وغير ذلك .

وأما العلوم المنطقية ومنها الشعر والخَطابة والجدل والبرهان والمغالطة وغير ذلك[٣] فان اجادتهم فيها كانت دون اجادتهم فى العلوم الرياضية ، لأنّ طبائعهم ما تهيأت للعناية إلاّ بقول الشعر كما رأيت ، وهو معدن حكمتهم وديوان آدابهم والمقيد لمحاسن كلامهم ، وقد بلغوا فيه الغاية التى لا مطمح وراءها الا ما كان من كلام النبوة ، وإن كان شعر الجاهلية جافياً لمكان أهله من الخشونة ومُقامهم فى القفر بين الابل والوحش والمنازل الخالية[٤] فان شعر المتمصرين ليس بخال من رقة الألفاظ وجمال الصور وهم القاطنون بين فرش الحرير وأطباق الرياحين وآلات الطرب والقيان والندماء . ولقد نسمع عن أهل الأندلس أنهم يقولون شعراً أرق من النسيم[٥] وذلك لغزارة المياه فى أراضيهم ونماء الرياحين فى جناتهم وظهور ريح الصبَّا عندهم ، حتى كان المرتحل منهم إلى المشرق إذا استقبل النسيم الذاهب إلى الغرب

---

(١) المقدمة ٣٥٩ (٢) المقدمة ٣٥٨ (٣) حاجى خليفة ٤ : ٤٦١
(٤) الكشكول والاغانى (٥) راجع كتاب المقرى وغيره من تواريخ الاندلس

ذابت نفسه من الشوق إلى تلك الديار التى ينفَح فيها الطيب على غصن أندلسها الرطيب فيقول[١]

وإذا ما هبت الريح صَباً   صحت واشوقى إلى الأندلس

وديار الأعراب قَفْر وإقليمهم محرق للأبدان ومجفف للعقول وذلك مما لا يولد فيهم من رقة القول وحلاوته ما نجده فى شعر الأندلسيين .

أما علوم المنطق فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب فى المنطقيات لأرسطو الحكيم[٢] عُرِّبت فى خلافة أبى جعفر[٣] بمناظرة عبد المسيح الحِمْصى وهو من أشهر النقَلَة بعد سلام الأبرش ،[٤] وقد اشتملت على رسائل ثمان ، أربع منها فى صورة القياس وأربعٌ فى مادته ،[٥] وربما زادوا فيها بعض شرح وتفسير .

وأما علوم الخَطابة والجدل والمغالطة فقد دونوا فيها مما استخرجوه من كتب اليونان أسفاراً كثيرة ولكن من غير تمحيص يرجع بهم إلى محاسن العلم إلاّ ابنَ العلاف[٦] خطيبَ هذا الزمان فى رسالة له فى الخَطابة بدأ فيها بذكر سحبان وقُس بن ساعدة وغيرهما من بلغاء العرب وخطبائهم فى الجاهلية والاسلام إلى أن أتى على بيان القواعد التى تلزم الأدباء فى الخَطابة ليجدوا بلاغة القول مع تقويم الألفاظ واكثار المعانى فى قليل من الكلام

(١) المقرى   (٢) كتاب أرسطو الخاص بالمنطق يسمى النص يشتمل على ثمانية كتب أربعة منها فى صورة القياس وأربعة فى مادته وهى كتاب المقولات وكتاب العبارة وكتاب القياس وكتاب البرهان وكتاب الجدل وكتاب السفسطة وكتاب الخطابة وكتاب الشعر ثم أن حكماء اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورتبت رأوا أنه لابد من الكلام فى الكليات الخمسة المفيدة للتصور فاستدركوا فيها مقالة تختص بها فصارت تسعاً . المقدمة ٤٢٩   (٣) المسعودى ٢ : ٤٠٠   (٤) حاجى خليفة ٣ : ٩٧   (٥) المقدمة ٤٢٨   (٦) ذكره ابن خلكان ٩٢

وأما العلوم الطبيعية وهى علم المبادئ وعلم السماء وما فيها وعلم العالم وعلم الكون والفساد وعلم المعادن والنبات والحيوان وفيه علم الطب فقد كان مرجعهم فيها إلى كتب الأعاجم كمرجعهم إليها فى جميع ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم قبل أبى جعفر كما ترى إلا ما وقفوا عليه بأنفسهم من حقيقة المعادن فى علم الكيمياء وهو النظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، فتوصلوا به إلى معرفة أمزجة المكونات وحقيقة المعادن والفضلات الحيوانية من العظام والريش والبيض وغير ذلك [1]

وكان الناس من أهل الأدب يصبون إلى هذه الصناعة لما فى منوعاتها وممزوجاتها من تسلية الخاطر مع تنوير العقل وتوسيع نطاق المعرفة ، حتى إن الملوك أنفسهم كانوا يتمهرون فى استخراج المركبات ومزجها على غير ترفع عنها . فهذا خالد بن يزيد بن معاوية الاموى قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ودوّن فيها الرسائل الكثيرة حتى أفنى علتها عمره ، [2] وهذا جعفر الصادق أحد الأئمة الاثنى عشر ومن سادات أهل البيت قد ترك فيما ترك أكثر من خمسمائة رسالة فى علم الكيمياء إلا أن هذه الرسائل لم تكن حاوية من العلم إلا ما وقف عليه أصحابها بطريق التجربة والاختبار فبقيت الكيمياء مفرقة غير مجموعة حتى قام بجابر بن حيّان الطرسوسى وهو تلميذ جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه فكتب سفراً جليلاً فى علل المعادن [3] ودوّن الكيمياء فى سبعين رسالة ربطها بأصول العلم ونبذ من مذاهب المتقدمين مالم يؤيده التحقيق فى مجرّباته ، وقد قسم هذه الصناعة إلى قسمين

---

(١) الاغانى ١٦ : ٨٨ والعقد الفريد ٢ : ٤٤٣ (٢) ابن خلكان ٥ : ٧٦٤
(٣) حاجى خليفه ٤ : ٢٤٦

منها القوة النفسية وهى السيمياء ، ومنها القوة العلمية وهى الكيمياء ، وأدخل العلوم السحرية فى السيمياء وذلك لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى صورة أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية . وقد وضع القواعد على منهاج لم يشرَكه فيه أحد ولا قدَر على مثله حكماء اليونان أنفسُهم ، ولذلك نسب إليه هذا العلم وصار علم الكيمياء يسمى بعلم جابر [١] أما الذين اشتغلوا فيها بعده فقد قصَّروا دون الغاية التى بلغها منها ، وربما أكبَّ عليها جماعة بما طمِعوا فيه من تكوين الذهب وإحرازة ولذلك لم يقيدوا مجرباتهم ومصطنعاتهم بالقواعد الثابتة بل جروا على مذاهب ضعفاء العقول من اليونان مثل طماوس وغيره ، وزعموا أن لهم طريقة لاستخدام الجن [٢] فى هذه الصناعة فلم يكن طائل فيما صنعوه . ولا فائدة مما دونوه ووضعوه .

وأما العلوم الألهية وهى السياسات والحرب والفلاحة وعلم الأخلاق وسياسة الأخلاق وغير ذلك فلم يكن للعرب نبوغ فيما نقلوه منها عن كتب اليونان والفرس ، وإنما ينفرد حسن نظرهم فى علوم الدين كما رأيت وفى علم الكلام الذى وضعوه تحفظاً [٣] من العلوم الحكمية إذ كانت تخالف الشرع الشريف ، [٤] وقد رأيت لهم كتباً فى السياسة المَدَنية [٥] يذكرون فيها تدبير المنزل بمقتضى الحكمة ليحملوا العامة على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه ، وذلك أحسن ما لهم من التآليف التى فيها رأى ونصيحة ،

---

(١) المقدمة ٤٦٣ (٢) المقدمة لابن خلدون (٣) ابن خلكان ١ : ٦٨٧ (٤) حاجى خليفة ٣ : ١٠٠ (٥) ذكر هذا ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ وابن خلكان ٢ : ١١٢ و ١١٤

أما غير ذلك من السياسات فلم يكن لهم منها إلاّ بضاعةٌ مُزْجاة لأنهم لم يُعْنَوْا بها قبل هذا الزمان ، ولا نعلم إلى أين يبلغون منها ولا ما تقرّرهُ فى نفوسهم من الفائدة وفى معايشهم وآدابهم من المنفعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم وهو ولىّ المؤمنين لارب غيره ولا معين سواه

أدب السير والحكايات

نُفْرِد هذا الباب لذكر الحكايات والقِصص فانها فن بل أدب قد هوت إليه أفئدة العرب ، وأولُ من سبق إلى تدوينه عبد الله بن المقفع وهو الكاتب المشهور بالبلاغة [١] والذى كان قائماً بديوان الانشاء فى خلافة أبى جعفر ، [٢] له كلام على الملوك يشهد بأنه كان عارفاً بالسياسة [٣] ومقالاتٌ فى البلاغة تُشير إلى أن الحكمة قد نطقت من نواحيه إلاّ أن أهل زمانه قد اتفقوا،وهم دونه فى العلم ، على أن يقولوا إنّ كلامه كان أكثر من علمه ، [٤] لأنهم ما أحبّوا أن يرفعوا عقله إلى مساماة البلغاء الذين أوتوا الحكمة وانتهت إليهم البلاغة . وقد كان تدوينه له فى تعريب كتاب هندى يقال له كليلة ودمنة [٥] وهو يتضمن حكايات وضعت على لسان البهائم

---

(١) العقد الفريد فى باب الكتاب وابن خلكان والمقدمة والمستطرف ١ : ١٥٩
(٢) المحاضرة ٢ : ١٣٢ (٣) الفخرى ٣١ (٤) ابن خلكان الأغانى ٨ : ٧٦
(٥) ذكره المسعودى ١ : ٣٨ والسيوطى وذكر المسعودى أن عبد الله بن المقفع كان عالماً باللغة الفهلوية وأنه ترجم منها الى العربية غير كتاب كليلة ودمنة كتباً كثيرة

والطير وأشير فيه إلى سلائقها من الحلم والمكر والجراءة والجبن والتيقظ والذهول والعقل والحمق إلى آخر السلائق لتثقيف العقول ورياضة الأخلاق بهذه الطريقة من الفكاهة ، لأنه يستخرج من الأقوال الهزلية ضروباً من الحكمة البليغة ، وهو يشتمل على غرضين سياسيّ وأدبيّ ، فأما السياسيّ فانه داع إلى العدل وزاجر عن البغى ، وفيه بيان سلوك الملوك فى آدابهم وتدبيرهم لأمور ممالكهم وما يجب عليهم من العدول عن اللهو والغفول إلى التيقظ والسهر وأنّ الفاضل من الملوك حقيق بأن يعتبر بأقوال الحكماء ولا يُقَرِّب إليه أهل النميمة والفساد . وأما الأدبيّ ففى بيان المعايش فى ظروفها وألوانها وسائر أحوالها والاقتصاد فى تدبير المنزل والمعاملات بين الناس وما ينبغى لهم فى سلوك الأمور من مراعاتها بعين العقل والبصيرة ، ولذلك يُعَدّ كتابهُ من كتب الحكمة ، ونرى الفضلاء من الملوك قد أقبلوا عليه وطمَحوا بأبصارهم إليه حتى إنّ كسرى أنو شِرْوان أنفذ طبيبه برزويه إلى بلاد الهند لاستنساخه فترجمه إلى الفارسية ، ولم تزل الملوك تعظمه إلى هذا اليوم[1]

وقد وضع ابن المقفع فى أول ترجمتـــه فصلا سماه « باب غرض الكتاب » وأودعه من صنوف البلاغة والحكمة ما ضارع به سائر أبواب الكتاب ، وذكر أن أغراض واضعه « بيدبا » الفيلسوف تنقسم إلى أربعة

---

(١) ذكر الحصرى أن سهل بن هرون ألف فى زمن المأمون كتابه المسمى « ثعلة وعفرة » يعارض به كتاب كليلة ودمنة وانه كان ظريفا عالما حسن البيان له كتب ظريفة صنعها معارضا بها الأوائل فى كتبهم بما لا يقصر به عنهم حتى قيل له بزر جمهر الاسلام ٢ : ١٨٦

فأحدها ما قصد إليه من وضعه على ألسنة البهائم ليسارع أهل الهزل إلى قراءته ، والثانى إظهار خيالات الحيوان بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، والثالث أن يشتد الحرص عليه للنزهة فى صوره فيتخذه الملوك والسُّوقة ويكثر بذلك استنساخه ولا يبطُل ، والرابع وهو الغرض الأقصى مخصوص بالفيلسوف خاصة .

ولقد قرأت هذه الترجمة أكثر من مرة بل أكثر من مائة مرة وأنا مشغوف بها لمكانها من البلاغة ،[1] وعهدى بجميع الكتب الأعجمية إذا عُرِّبت عُرِّيت إلاّ هذا الكتاب فانى رأيته فى العربية أفصح منه فى الفارسية ، وقد كان صِبْية البرامكة (حفظهم الله) يحاولون حفظه عن ظهر قلبهم ففطَن لذلك أبان بن عبد الحميد[2] ونظمه لهم بالشعر حتى يسهُل عليهم

---

(١) المقدمة ٢٥٧ (٢) ذكر فى العقد الفريد ٢ : ٢٢٨ أن أبان بن عبد الحميد كان من ندماء البرامكة وله قصيدة أنشدها للفضل بن يحيى فيها حلاوة شمائله وبراعة أدبه يقول :

أنا من بغية الأمير وكنز ... من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب أديب لبيب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الر ... يش اذا ما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة ونفاذ ... أنا فيه قلادة لوشاح
لو رمى بى الأمير أصلحه الله ... رماحاً صدمت حد الرماح
ثم أروى عن ابن سيرين فى الفقه بقول منور الافصاح
لست بالضخم فى روائى ولا الفد ... م ولا بالمجعد الدحداح ؟
لحية كثة وأنف طويل ... واتقاد كشعلة المصباح
وكثير الحديث من ملح النا ... س بصير بخافيات ملاح
لم وكم قد خبأت عندى حديثاً ... هو عند الأمير كالتفاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد ... فى غدو أو بكرة أو رواح

استظهاره ، يقول فى مطلع ذلك الـكتاب (١) .

هذا كتاب أدب ومحنـه ‌‌ ‌‌ ‌‌ وهو الذى يُدْعَى كليله دمنه
فيه احتيالات وفيه رُشْدُ ‌‌ ‌‌ ‌‌ وهو كتاب وضعته الهند

إلى آخر الأبيات فأعطاه يحي عشرة آلاف دينار وأعطاه الفضلُ نصف ذلك جائزة على هذا الاستخراج ، لأنه كان بموضع جليل من البلاغة التى ورثها عن أبيه . فقد كان عبد الحميد من فحول الـكتّاب الذين فتقوا أكمام البلاغة وفـكوا رقاب الشعر ، (٢) وكان فخراً للمسلمين بما آتاه الله تعالى من البلاغة التى جمعت سحر البيان ، وأخذت بمجامع الجَنان ، يقال إنه لما ظهرت دعوة أهل البيت وكان عبـــد الحميد كاتباً فى دولة الأمويين قال لمروان سأُصْدِر عنك كتاباً إلى أبى مسلم فان قرأه حصل عندنا وجه من الآمال وإن لم يقرأه ذهبت الدولة منكم ، فلما وصل الـكتاب إلى أبى مسلم (رحمه الله) وكان عالما بمكان عبد الحميد من البلاغة قال « أبقُوا الـكتاب على طيّه فانما فيه سحر غالب » على أنى لو سئلت التفضيل بين هذين الاستخراجين لقلت إن ترجمة ابن المقفع حقيقة بأن تكتب بماء الذهب وتُتْحَف بها خزائن الملوك .

ولما رأى الأدباء إقبال الناس على الـكتاب تسارعوا إلى تعريب غيره من كتب السِّيَر والخرافة ، فترجموا عن الهندية كتاب وزره وشماس (٣)

أعلم الناس بالجوارح والصيــد ‌‌ ‌‌ وبالخرد الحسان الملاح
كل هـذا جمعت والحمد لله ‌‌ ‌‌ على انى ظريف المـــزاح

(١) الاغانى ٢٠ : ٧٣ ‌‌ ‌‌ (٢) العقد الفريد والمسعودى ٢ : ١٦٣ وذكر أنه أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الـكتب واستعمل الناس ذلك بعده . ‌‌ ‌‌ (٣) المسعودى ١ : ٢٩٦

وفيه أخبار ملوك الهند و بناتهم وما يتخللها من الأمثال التى توسع العقول أدباً مع فكاهة وترويض أفكار ، وترجموا عن الفارسية كتاب هزار أفسان وسمّوه ألف ليلة وليلة ،[1] ومعنى هزار أفسان ألف خرافة ، وكان السبب فى وضعه كما هو معروف أنّ ملكا من ملوك الفرس كان إذا تزوج امرأة قتلها بعد يوم غَيْرَةً عليها من الرجال ، فتزوج بجارية من بنات الملوك ممن لهن عقل ودراية يقال لها شهر زاد وفى بعض النسخ شيرزاد ، فلما اتصلت به أخذت تحدثه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها وسؤالها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة ، وإلى أن رزقه الله منها بولد طرحته اليه ، ووقفته على حيلتها عليه . وكان للملك قَهْرَمانة يقال لها رسازاد أو دينارزاد[2] كانت موافقة لها على ذلك ، وفى هذا الكتاب دون المائتى سَمَر لأن كل سَمَر كان يُحدّث به فى ليال عدّة ، وهى من أظرف الحكايات التى وضعتها الفرس فى غابر الدهر .

ولما راج سوق هذا الكتاب تداولهُ النّساخ والكتاب وأضافوا اليه حكايات كثيرة وضعوها على سبيل الفكاهة بما يعهد فيهم من طول الباع فى وضع الحكايات ولا سيما ما يتضمن أخبار الجان ووصف مساكنهم تحت البحار وتزويجهم بناتهم من ملوك الأنس وقصص العفاريت والهواتف وغير ذلك إلى أن صار جملة ما فى الكتاب حكاياتٍ عربية لا يخالطها من كلام الفرس الا القليل ، وهى وإن كانت بعيدة عن الصدق تظهر فضل العرب فى أنهم يمتلكون فؤاد السامع برقة مأخذهم فى تجميلها

(١) المسعودى ١ : ٢٩٦ (٢) كتاب الفهرست

ورونقها ، كالذى زعموا أن صياداً ألقى شبكته فى البحر وظل نهارَه طولَه لم يظفَر بسمكة ، فلما أزمع الانصراف وقد أعياه الملل وضاقت به الحيل جرّ الشبكة فاذا هى ثقيلة فطمع أن تكون قد اشتملت على حوت يستعيض بثمنه عن نَصَبه فى ذلك اليوم ، فلما جذَبها إلى الشاطئ وجد فيها قُمْقُماً من نحاس وعليه خاتَم سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ، ففض خِتامه فصعِد منه دخان خيّم على السماء ، فنظر فى الدخان فاذا هو يجتمع ويتكون إلى أن وضَح منـــــه جانٌ من صفته كذا وكذا . فلما تدانيا جرى بينهما حديث يقبض النفس هيبة وفَرَقاً بحيث لا يتنبه السامع الى أن هناك خرافةً ، فاذا انتهت الحكاية إلى ما أصاب الصيادُ من الجوهر والمال بعد أن خامره الروع وأفزعه الهول انبسط منه الخاطر المنقبض ، والتمس فى نفسه مثلا لهذا المسكين فوجده كثيراً فى الناس فرجع إلى الحكاية فوجد فيها سراً يريده الكاتب من وراء الفكاهة

وإجماع الرأى على أنْ ليس فى حكايات الناس وقصصهم وأحاديثهم ما هو أظرف من هذه الحكايات وألطف صنعاً ، فان فيها من الوصف البارع ، والتمثيل الساطع ، ما ينطق بفضل العرب فيما تطرقوا إليه من وصف معايش الناس وأخلاقهم وما يتقلبون فيه من الأحوال التى توسعوا فى وصفها ، إلى أدب جزيل الفائدة ، جميل العائدة . فأما الحكايات التى ذكروا وقوعها فى الاسلام فلا تبعُد عن الأحوال التى تحدث ببغداد فى أكثر الأيام اللهم إلا فيما كانوا يمزِجون به أخبار الخلفاء من الخيال لنكتة يشوِّقون إلى الوقوف عليها مما اتفق وقوعه للملوك ، مثلُ حكاية الخليفة الثانى وحكاية الخليفة والصياد إلى حكايات غيرها يظرِّفون بها الخبرَ عن

الرشيدوجعفر ، أمّا ما ذكروه عن تطوافهما [١] مع مسرور ليلا فى الأسواق متنكرين عن أن يعرفهم أحد فان ذلك ليس بالموضوع ، وقد ذكرت مثلَه فى رسائلى السالفة إليك غير أنى جردته عن المبالغة التى يزيّن الرُّواةُ بها أحاديثهم ، كوقوف الرشيد فى موضع الخطر أو ارتدائه بلباس الصياد على سبيل الفكاهة أو وقوعه هو وجعفر تحت سيف ذلك الرجل الذى كاد يقتلهما لولا أنهما تداركا أمره بحيلة وجدا بها السلامة والنجاة .

وأما الحكايات التى زعموا أنها وقعت فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان فهى من الغرائب التى لا دلالة لها على الصدق وانما أقبل خلق من العوام على تصديقها لانقطاع أخبار الأمم عنهم بحيث كان يتعذر عليهم معرفة غثها من سمينها ، ولأن ناقل الرواية كان يحدثهم بأن كذا وكذا من الأمور الغريبة جرى فى كذا من البُلْدان البعيدة الشُّقة المتفاوتة السبيل ، فلو حدثهم بأنّ فى الشام مدينةً من النحاس [٢] أو بالعراق بلداً صار غديراً ثم انقلب ماؤه إلى عمـــارة وأسماكُه إلى أناس ما صدقوا كلامه لأنهم يطرُقون هذه البلدان كلَّ يوم وعهدُهم بها على غير انقطاع ، وإنما نُقل إليهم أن ذلك كله فى جزائر الوَقْواق وما وراءها من بُلْدان العجائب فاوسعوا صدروهم لتصديق كلامه بما كانوا يتشوقون إلى الوقوف عليه من نعيم الناس وهم بمكانهم من عيش البداوة .

ومن أظرف ما ورد فى حكاياتهم قصص العشق والغرام فيما أعربوا به عن محاسن النساء بين كاعب حسناء . وغانيـة هيفاء . وشاعرة فصيحة

---

(١) الاتليدى ١٢٦ والأغانى ٦ : ١٣٧ وغيرهم (٢) المسعودى وذكرها ابن خلدون فى المقدمة ٣٢ فى معرض الانتقاد على المؤرخين

وعجوز ذات دهاء ، وما توسعوا به فى كلامهم عن العشاق ووصف هنائهم فى التلاق ، وتوجعهم أيام الفراق إلى وضع الحكايات التى ترتاح إليها القلوب بما تصف من النعيم الذى يبعد عن أن يتمتع به الناس وانما هو صورة تتمثل فى الضمير على سبيل التخيل ، كالذى يحكونه عن فتى من أولاد الملوك أنه وقع إلى جزيرة كلُّ من فيها نساء وتجارُها نساء وجندُها نساء وكلُّهن آية من آيات الحسن والجمال ، وأنه قضى بينهن أياماً من النعيم أقلُّ ما أصاب فيها أنه كان إذا طرح الشبكة فى البحر على سبيل التسلية خرجت له من الاصداف صَبِيَّة من بنات الجان ، كأنها حورية من حور الجِنان ، إلى غير ذلك من الوصف الذى يحرك القلب ويملك الجَنان .

وقد حلا لى من حكاياتهم أيضاً حكاية السندباد [1] وهى تشتمل على الحوادث التى وقعت له فى أسفار سبعة أتى عليها جميعاً فى طلب المال وفى كل سَفْرة عجيبةٌ لم يسمع أحد بمثل ما فيها من المتالف التى وجد الكاتب مشقة عظيمة لاستنباط الحيلة فيها على وجوه تدفع الناس إلى ركوب الاخطار لنيل العلا والفخار ، بما تمتلك به أنفسَهم من ذكر جبال الماس وعيون العنبر وعجائب البُلْدان التى نزل بها السندباد . وعلى بعض ألسنة الأدباء أن هذه القصة ليست من وضع العرب إنما نقلوها عن الهند واليونان وأضافوا إليها ما يحسُن أن يكون فى كلامهم حتى نَفَوا العجمية

---

(١) ذكرها المسعودى فى موضعين من كتابه أحدهما فى صحيفة ٢٩٦ من المجلد الأول ولم يذكر عنها شيئاً والثانى فى صحيفة ٣٨ وقال انه كان فى عصر كورس ملك الهند وذلك قبل زمن عيسى عليه الصلاة والسلام بثلثمائة سنة سندباد دون له كتاب الوزراء السبعة والمعلم وامرأة الملك وهو الكتاب المترجم بالسندباد .

عنها . وهذا كلام فيه بُعْدٌ عندى ، لأنى طالما سمعت رُواتهم يحدثون بمثل ذلك ، وفى مطلع الحكاية أن الحمّال اشتد به الحر فحط حَمْلَته على باب التاجر فى ظل يتردد اليه النسيم الرطيب، وتفوح منه ريح العطر والطيب وأنه كان يرى عِزّة ذلك التاجر فى كثرة غلمانه ، ويسمع تغريد القَماريّ والشّحارير فى جنانه . وينشَق من طعامه ريحا أحزنت منه النفس لانقطاع أمله منه وهو بمكانه من التعب وشقاء الحال ممايستوقف الطّرف ، ويشهد ببراعة الوصف فيما قصد اليه من بيان الفرق بين عيش الرخاءُ والنُّعْمَى ، وعيش الشَّظَف والبلوى .

ولست أظن فى هذه الحكايات السندبادية إلاّ أن واضعها رجل قد عانى الأسفار ، وتقلب على متون البحار ، حتى عرَف ما بالأمصار ، من عجائب الآثار ، وغرائب الأخبار . وهذا شاهد على صحة ما ذكرناه من تَقَلُّب الكتاب فى أيدى الأدباء الذين عزّ علم جميعهم عن أن يضمَّهُ صدر واحدٍ من الرجال ، وإلاّ فان فى وصف الحروب من ذكر الكرّ والفر وحيل الفُرسان ما لا يستنبطه إلاّ من طال وقوفه فى ساحات القتال ، وكذلك فى نوادر الزواج والطلاق من المُعَمَّيات ما لا يَسْتخرج فَتْواه إلاّ فقيه مجتهد فى الأحكام الشرعية أيَّما اجتهاد ، ولولم يكن هذا الاستدلال صحيحاً لوجدنا فى اختلاف الأقلام دليلا واضحاً على اشتراك الأدباء فى تأليفه ، لأنا نجد فيهم من يسترسل فى المغالاة إلى أن يذكر عن فارس من الفُرسان أنه قتَل فى معركة واحدة كذا وكذا من الخلق مما ليس فى الامكان إحصاء عددهم فى يوم واحد فكيف بقتلهم ؟ ثم نجد مَن رسم قواعد الرواية على منهاج لم يتعدَّه إلى ذكر المبالغة التى بعدت دلالتها عن الصدق ، وإنما ذكر الأخبار

للنظر فى عادات النـاس وأخلاقهم وكيف يتقلبون بالزمان أو يتقلب بهم الزمان ، وذلك مثل ما قصد الأدباء إليه فى كلامهم عن العرب من ذِكر المحاسن التى تفاخروا بها على جميع الأمم من الكرم والمروءة والعفـاف ، والمساوئ التى تفانوا لأجلها فى طلب الثأر وإدراك الغنائم ، أو مثل ماقصدوا إليه فى حوادث زماننا هذا من ذِكر أخبار النساء كما هى ، إلى غير ذلك من وصف العادات المُتْرَفة التى وقعت فى بغـداد لهذا العهد ، وهذا هو النوع الخاص الذى أرتاح إليه من حكايات ألف ليلة وليلة لأنه ينبئ عن أخبار العرب الخاصة ، وفيه حسن وبراعة وصف لا مثيل لها فى أدب الحكايات

تدوين الأخبار وأيام الناس

إنما وضع العرب هذه الحكايات بعد أن توغلوا بالأسفار فى أطراف البُلْدان حتى تجاوزوا الصين الى ما وراء فَرْغانة ،[1] فاستفادوا بذلك غيرَ ما كسبوه من الأموال أحوالا شـــــاهدوها وعاداتٍ جَرَوْا على سَنَنِها ومبانىَ حاكَوْا منها الزينةَ والإحكام ، وشرائع تفقّهوا فى استخراجها للأحكام .

---

(١) يستدل على ذلك مما دونه رحالة العرب وعلماؤهم فى الجغرافيا

وكانت عادة المسافرين بعد عودتهم إلى الديار أن يحدّثوا الحيّ بغريب ما نظروه ، وعجيب ما سمعوه . فمن تلك الأخبار المنقولة ما اتصل بى من أنّ فى بعض الأمم رجالا عِراضَ الوجوه سودَ الجلود لا يزيد طول أطولهم على أربعة أشبار ،[1] وفى جلودهم نُقَط حمر وصفر وبيض ، وأنّ منهم من له أجنحة يطير بها ، ومن رأسُه كرأس الكلب ،ومن جسمُه كجسم الثور أو الأسد ،[2] ولقد سمعت من يحدّث أنّ من البلغار من طولُه أكثرُ من ثلاثين ذراعاً يأخذ الفرَس تحت إبطهِ كما تأخذ الطفل الصغير ، ويكسِر بيده ساقه كما تقطع باقة البَقْل[3] إلى غير ذلك . واستأظن هذه الأساطير التى يتناقلها الأخباريون من أهل الأسفار إلاّ أنهم رأَوْا رسومَها على الآثار التى خلّفها الهنود والفُرْس والقبط السالفةُ من قوم فرعون وغيرهم من أهل الأعصر الخالية فحدّثوا بها رجماً بالغيب ، أو تحصيلا لليقين من الرَّيْب . ظنّا منهم ان أمثال هذه الخلائق المشوهة عاشت فى قديم الزمان . أو أنها لا تزال فيما قَصَا عنا من البلدان .

ولمّا دارت هذه الأساطير بين الناس ، وتناقلها الندماء والجلاس ، أشفق العلماء على أخبار العرب وأيامهم من دخول الفساد عليها أو امتزاج الحكايات الباطلة بها فتسارعوا إلى تقييد التاريخ فى الأوراق حتى لا يتشوّه على تمادى الأيام ، بتداول الرواية على ألسنة العوام . وقد كان شعر العرب محفوظاً فى صدور أهل العلم فنقلوه إلى الكتب للدلالة على ما يرومون إثباته من الأخبار مع بيان صحتها واستخراج الكثير من عقائدهم وعاداتهم من

---

(١) ابن خرداذبة ٦٣ (٢) القرمانى ٥ : ٥٤ (٣) المستطرف ٢ : ١٦٢

أمثال هذه الأسانيد المحفوظة ، وهم يوقّتون وقوع الحوادث السالفةِ مثل ما كان يوقّته أهل الجاهلية بقولهم هذا جرى فى أيام كسرى ، وهذا فى حَرب البَسُوس إلى غير ذلك [١] وأمّا الحوادث التى وقعت فى الاسلام فقد أرخوها بالسنين والشهور والأيام وكانت أصحَّ فى النقل والرواية من أخبار الجاهلية ، لأن شأنَ الرُّواة فيها من الخلاف والاختلاف والمخالفة أشهرُ من أن يذكر ، والحوادثُ إذ ذاك محفوظة بالأنواء وطلوع النجم ، ولم يسلَم لهم من الفساد إلاّ علمُ الأنساب الذى حفظته فيهم العصبية [٢] حتى اتصلت أنساب أشرافهم إلى أولاد ابراهيم (عليه السلام) مثلُ أنساب قريش وثَقيف وغيرهم من البيوتات .

وأول من سبق إلى تدوين التاريخ محمدُ بنُ اسحق [٣] فى كتابه عن المغازى والسِّيَر وأخبار المبتدأ ، [٤] ولم يكن التاريخ قبله مجموعا ولا معروفا ولا مصنَّفا ، [٥] ثم أخذ أهل العلم فى تدوينه بعد ذلك . ووضع محمد المعروف بالواقدى كتاباً فى فتوح الشام ضمنه كثيراً من سِيَرِ الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم) وأتى على ذكر الحروب التى سُعِّرَت نارُها على عمّال الروم ، إلا أنى رأيته يسوق الحديث فى كلامه عن الجند والقتلى جُزافا فيقول إنه سار إلى قلعة كذا خمسون ألفاً من المسلمين وإلى حصن كذا كذا وكذا رجلا والى البلد الفلانىّ كذا خلقاً عظيما مما لو جُمِع إلى ما فرَّقه على سائر الحصون والقلاع لم نجد قدرَ نصفه فى جنود المسلمين كما ثبت عند أئمة

---

(١) راجع كتاب الأغانى (٢) راجع مقدمة ابن خلدون والعقد الفريد
(٣) حاجى خليفة ٣ : ٦٤٣ وذكر أبو الفداء وابن الأثير انه مات سنة ١٥٠
(٤) المقدمة ١٧٠ (٥) المسعودى ٢ : ٤٠١

النقل ، وكذلك اكثارُه فى عدد القتلى من الروم كأنْ يقول إنه قتل منهم كذا وكذا من الآلاف مما لم يكن فى جندهم مثلُه فى جميع ما لهم من البُلْدان ، فربما انفرد الواقدى فى علم الفقه والحديث ولم يكن له باع فيما سواه من العلوم .

وقد دوَّن التاريخَ بعده حَمَّاد الراويةُ وعبد الله الأَصْمَعِيُّ وهما يعرفان أخبار العرب وأيامَهم وأنسابهم ويُمليانها عن ظهر قلبيهما إلاّ أن الخلل فى روايةِ حماد أنّه يقول الشعر على لسان المتقدمين [1] فيما يروم إسناده اليهم من نكتة أو من خبر ، فهو إلى المؤاخذة بما يُدْخِل على التاريخ من الأخبار الموضوعة أقربُ منهُ إلى الثناء على مايضعُه من الشعر الذى لا يفترق عن كلام الجاهليين . يقال إنه روَى لهم ألفين وتِسْعمائة قصيدة ، لكل حرف من الحروف الأبجدية مائةُ قصيدة كبيرة سوى المُقَطَّعات [2] . وأما الأَصْمَعِيُّ فليس ثَمَّةَ من الأمور التى ننتقدها عليه إلاّ أنه كثير الرواية واسعها حتى يكونَ فيها بعض المِرْية عند كثير من أهل العلم ، وليس ذلك لغرابتها أو لبعدها عن الصدق بل لكثرتها فيما نَقَل بمدوَّناته ، وهذا لا يَنْقُص فضلَه فى العلم ، ولكنه من باب تعظيم الشىء الذى يزيد قدرُه على أن يكون مثلُه فى صدر رجل .

ثم إنى وجدت الأَصْمَعِيَّ وحمادا كليهما قد وقعا فى الخطأ والقصور اللذين وقع فيهما أهلُ الرواية قبلَهما وبعدَهما . فأما الخطأ فهو إعراضهم جميعاً عن ذكر محاسن الأعاجم ممن هو خارج عن دين الاسلام حتى

(١) الاغانى وابن خلكان (٢) الأغانى ٥ : ١٦٥

لا يشغلوا كتبهم بذكر مذاهب كفرهم[١] كما يقولون ، وأمّا القصور فلكونهم يذكرون الحوادث من غير أن يستوعبوا مبدأها وغايتها ولا أن ينظروا فى عللها وأسبابها ولا أن ينتقدوا على الملوك معايبهم فيما سقطت به دولهم بعد أن تسلّموها بمكان عظيم من النفوذ والسلطان ليكون فى انتقاد الأشياء تَذْكِرَةٌ للناس ، ويظهر فضل التاريخ على سواه من العلوم الأدبية ببيان المحامد التى يُسْتَرْشد بها والمساوئ التى ينبغى الاستنكافُ منها والتنكب عن سبيلها .

هذا ما أعلّقه فى هذه الرسالة عن علوم العرب وآدابهم مما يشهد لهم بالفضل الجزيل فيما تمهروا فى استخراجه من كتب الأعاجم ونظروا فيه نظر بصيرة واجتهاد من جميع العلوم والفنون والصناعات ،[٢] إذ كان لهم غيرَ من ذكرنا من العلماء كثيرٌ من النقّاشين والمصوِّرين والصناع مما يدل على أن لهم صوراً على الورق الصقيل[٣] تظهر خارجة وليست بخارجة ، وداخلة وليست بداخلة وفيها كلُّ غريبة من الأبداع ، ورأيت من رسومهم على الآنية والأعمدة والقباب ما يبهر البشر فى إحكام الصناعة مع الحلاوة وتمام الزينة مع الحسن والطلاوة ، وهذا كلُّه قد توصلوا إليه فى عصر الرشيد وملوكِنا البرامكةِ (أعزهم الله) وقد سُمِّىَ بالعروس[٤] لخِصْبه ونضارته وكثرة خيره وانتشار علمه فى جميع البُلْدان الاسلامية . ولعمرى أن فيما ذكرت بهذه الرسالة من آداب العرب لشاهداً ناطقاً ببلوغ الغاية من

---

(١) المقدمة ٢٠٣ وابن حوقل وغيره (٢) راجع مقدمة ابن خلدون وكتاب حاجى خليفه (٣) كليلة ودمنه (٤) المسعودى ٢ : ٤٠١ والشرقاوى ١٢٢ وفى الحصرى ٢ : ١٠٣ كانت أيام البرامكة روض الأزمنة

العمران . إذ كان العلم مرآة يرتسم فيها حال الأمم فى كل عصر ومكان .

وقد وقع تدوين هذا الكتاب فى أول شهور السنة السادسة والثمانين بعد المائة من هجرة نبينا المكرم (صلى اللهَ عليه وسلم) واللهَ نَسأل أن يُجَمِّل حالنا بالسِّتر الجميل ، إنه بالمؤمنين رءوف رحيم ، لا ربّ سواه .

الرسالة الثامنة

رسالتى إلى قيصر الروم

هذا تاسع كتبى إليك أفرده لذكر الرسالة إلى أنبرذور الفرَنْجة ، وأنا أكتبه اليوم على متن السفينة فى البحر الفاصل بين الروم وإفْرِيقِيَةَ . كان الرشيد يومَ وصل رسول الأنبرذور إلى الحضرة[1] قد استدعانى إليه فأصبته فى مجلسه متنقلا كأنه يريد أمراً عظيما ، فاستدنانى[2] إليه وقال إنّا أتانا من ملك الفرَنْجة رسولٌ يُقْرِئنا منه السلامَ ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحجُّ إلى بيت المقدس من ملّته ، فرأينا أن نوجهك إليه بلطائفَ نروم منه أنْ يتقبلها فى سبيل المودّة لغاية نرغب فيها إليه هى التعصُّب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس فيما هو ناشب بينهم من الحروب ،[3] فإذا وافقنا على

---

(١) هذه اللفظة لقب رومى للقياصرة وقد وردت فى كتب العرب ووجدت فى ابن خلكان ١ : ٨٤ لفظة انبرور بحذف الذال وهى تشبه أن تكون منقولة عن الفرنساوية (٢) فى الأغانى ٤ : ٤٨ أن الخليفة يستدنى من يحبه (٣) راجع المقرى وابن الاثير تجد كلاماً مطولا فى هذه الحروب